دراسات تاريخية



كيف نستفيد من أخطاءِ الماضِي؟

تأليف
محمد العبده

طبعة مزيدة ومنقحة

دار الأرقم
برمنجهام - بريطانيا

الطبعة الثالثة
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

طبعة مزيدة ومنقحة

دار الأرقم
برمنجهام - بريطانيا

7 LANGLEY ROAD, SMALL HEATH'
BIRMINGHAM, B10 0TN, U. K.,
TEL: (021) 773 0060

حركة

النفس الزكية

دراسات تاريخية

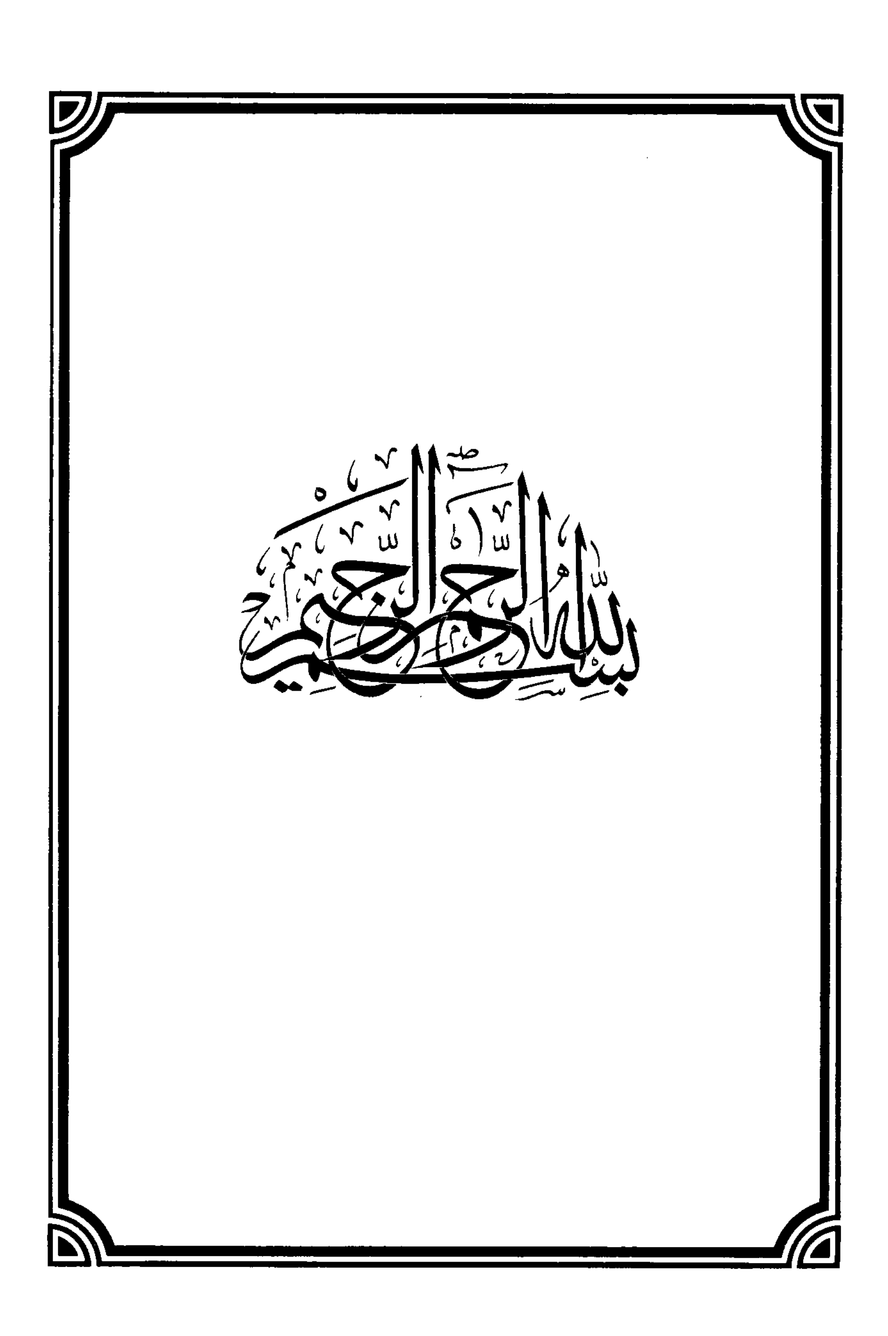
حركة النفس الزكية

كيف نستفيد من أخطاءِ الماضِى؟

تأليف

محمد العبدة

دار الأرقم
برمنجهام - بريطانيا


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الذين أدُّوا الأمانة وفقهوا الرسالة وكانوا خير الأجيال ، وبعد :

ففي سنة ١٤٥ هـ وفي عهد الخليفة الثاني من خلفاء الدولة العباسية أبي جعفر المنصور(١)، قامت حركة مضادة لهذه الدولة في المدينة المنورة يقودها محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب(٢) وأخوه إبراهيم بن عبد الله الذي خرج من

---

(١) هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، تولى الخلافة بعد أخيه الملقب بالسفاح وهو أكبر منه سنًّا لكن السفاح كان من أم عربية ، ويعتبر المنصور مؤسس الدولة العباسية فهو كعبد الملك بن مروان في الدولة الأموية ، وكان يجمع بين النسك وأبهة الملك كما يصفه الذهبي ، ولم يعرف في داره لهو قط ، وهو من الملوك ذوي الحزم والتدبير ولكن كان فيه ظلم وشدة .

انظر في ترجمته : سير أعلام النبلاء للذهبي ٧/ ٨٣ بتحقيق الأرنؤوط ط - ١٩٨١، العبر ١/ ٢٣٠ ، البداية والنهاية لابن كثير ١٠/ ١٢١ .

(٢) ستأتي ترجمته مفصلة بعدئذ .

البصرة . فهي حلقة من ثورات الطالبيين على بني أمية وبني العباس ، يريدون الإصلاح أو يطالبون بحقهم كما يظنون .

وهذا البحث هو دراسة لهذه الحركة القوية التي كادت أن تودي بالدولة القائمة وهي نموذج لكل الحركات التي خرجت على حكام المسلمين قبل أبي جعفر وبعده .

وهذه الدراسة هي للاستفادة من التاريخ الإسلامي بعين البصيرة لا بعين التقليد والتبرير ، ومعرفة أسباب الفشل أو النجاح في هذه الحركة أو غيرها ،ولماذا قامت كل هذه الحركات على بني أمية وبني العباس ؟ .

و لم أقصد دراستها من الناحية الشرعية ، وأعني بذلك السؤال الذي يطرحه العلماء : هل يجوز الخروج على أئمة الجوْر أم لا ؟ ، فهذا بحث آخر وله موضع غير هذا الموضع ، وله تفصيلاته هناك وآراء أهل السنة وآراء المخالفين من المعتزلة أو الزيدية ، كما أنني لا أقصد الدراسة التاريخية البحتة ، وأعني دراستها من مصادرها ومواجهة القاريء ليحكم عليها ، وإنما قصدت دراستها كواقع حدث في فترة من تاريخنا وهل يمكن الاستفادة من هذه الحركة في حياتنا المعاصرة عندما ندرس أسباب نجاحها أو فشلها ؟ .

ونحن نعلم أن القرآن ذكر لنا سير الأولين وطلب منا أن نعتبر إن كنا من أولي الألباب ، ذكر لنا أن الأمم الغابرة حين بطرت

معيشتها وابتعدت عن منهج الله كيف أصابها الدمار والهلاك ، وذكر لنا سننه - سبحانه - في خلقه وكل الأحداث التي تدور على الأرض هي من سنن الله سبحانه في أهل طاعته وأهل معصيته ، وما التاريخ إلا تفصيل لهذه السنن .

وأعتقد أننا لو درسنا تاريخ المسلمين دراسة تفصيلية واعية لاستفدنا منه كثيراً في حياتنا المعاصرة ولما تخبط المسلمون في هذا العصر بالسير وراء كل ناعق ينعق بشعارات إسلامية مزيفة .

وإن المتتبع لجزئيات التاريخ الإسلامي يخرج بنتائج ومعالم واضحة ، منها أن الخطر الخارجي مثل زحف المغول والصليبيين ليس هو الخطر الأكبر والأصعب وإنما الخطر الداخلي الذي كان ينخر في جسم الدولة الإسلامية المتعاقبة هو الخطر الداهم ، فثورات الفرق الباطنية من الخرمية إلى الحشاشين إلى القرامطة والإسماعيلية الفاطميين أتعبت جسم الدولة الإسلامية .

وكذلك الفرق المنحرفة الضالة من الخوارج إلى المعتزلة إلى الصوفية بخرافاتها وبِدَعها ، كل هذا أتعب المسلمين وأدخلهم في دوامة من الجدل النظري ، والبعد عن العمل المثمر .

يقول القاضي تقي الدين بن دقيق العيد : (إنما استولت التتار على بلاد المشرق لظهور الفلسفة فيهم وضعف الشريعة)[1] ويقول ابن خلدون : (فإنك تجد المسلمين في الأندلس يتشبهون بالكفار في

---

(١) فتاوي ابن تيمية ٢ / ٢٤٥ .

ملابسهم وأحوالهم وفي رسم التماثيل ويستشعر الناظر لذلك بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء)[1]، فابن خلدون يرى أن من أسباب تسلط الأسبان النصارى على المسلمين في الأندلس هو هذا التشبه بهم وترك الاعتصام بالشريعة .

ومن الأسباب الداخلية تحول الخلافة إلى ملك عضوض ، فيه قسوة وظلم ، مع أن فيه أيضاً قوة وجهاد لأعداء الله ، فهو كمن جمع عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وهذا التحول هو من سنن الله الكونية وربما يكون عقاباً للمسلمين بسبب ذنوبهم لعلهم يرجعون . يقول ابن تيمية : (ومصير الأمر إلى الملوك ليس لنقص فيهم فقط بل لنقص في الراعي والرعية فإنه كما تكونوا يولّ عليكم ، ﴿ **وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً** ﴾)[2] هذا التحول من الخلافة إلى الملك كان أحد أسباب تلك الثورات والحركات التي خرجت على بني أمية أو بني العباس .

والصراع بين الحق والباطل هو من سنن الله الكونية أيضاً : ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً** ﴾[3] فالله سبحانه وتعالى دفع شر المجوس بالنصارى ثم دفع النصارى بالمسلمين[4]،

---

(١) المقدمة ٢ / ٥١١ نشرة الدكتور علي عبد الواحد وافي .

(٢) الفتاوي ٣٥ / ٢٠ .

(٣) سورة الحج الآية : ٤٠ .

(٤) ابن تيمية : الجواب الصحيح ١ / ٢٧١ .

فإذا كان هذا بين المسلمين والكفار فكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يدفع فساد من فسد من المسلمين أنفسهم بواسطة الغيورين من المؤمنين ، وإذا فشل هؤلاء الآمرون بالمعروف فيكون عن نقص فيهم في الأخذ بالأسباب أو لحكمة يريدها الله سبحانه وتعالى ، وكل حدث في التاريخ الإسلامي لا بد أن نفسره بهذا ، فقد يسلط الله سبحانه وتعالى على المسلمين عدواً من غيرهم حتى يستيقظوا ويتنبهوا ، وحتى تستنفر طاقاتهم ، ويرجعون إلى الله ويلجأون إليه ويكون هذا خيراً لهم وإن لم يجابهوا التحدي عاشوا أذلاءَ مقهورين .

وإنَّ اللحظات الحرجة التي تمر على الأمة هي لحظات التحدي ، عندما تشعر الأمة أنها في خطر داهم ولا بد أن تكون بمستوى هذا التحدي ، كما أن الخطر الداخلي يجب أن يستنفر القوى المذخورة لإصلاح الأوضاع الفاسدة .

إن الحركة التي هي محل الدراسة إن هي إلا نموذج للحركات التي خرجت على حكام المسلمين ويقصد صاحبها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويرى في هذا الحكم أنه ظالم ، هذا هو ظاهر الأمر وربما يخطيء في الأسلوب أو يصيب ، ربما تكون له أهواء أخرى من حب الملك أو الظن أن الحكم يجب أن يكون في ذرية علي وليس في بني العباس ، ولكنها تبقى حركة من الحركات الكثيرة التي قامت ضد الدولتين الأموية والعباسية وظاهرها محاولة إصلاح ما فسد ، وهذه الحركات كانت تجد أذناً صاغية من

المسلمين وأكثرهم قد يكون مدفوعاً بعاطفة إسلامية صادقة ، والسبب في هذا أن المسلمين أصيبوا بخيبة أمل كبيرة وبمرارة شديدة عندما وصل الأمر إلى أمثال يزيد بن معاوية وغيره ، فظن المخلصون أن باستطاعتهم وبكل سهولة زحزحة هذه الدولة القوية الراسخة ، لأنها وإن لم تكن هي النموذج المطلوب ، ولكن أكثرية المسلمين قبلوا بها على أساس الأمر الواقع وكانوا يخشون أن يأتي ما هو أسوأ منها ، ومن جهة ثانية فإنها بأموالها الكثيرة كان لها من الجيوش والحماية ما يصعب هدمها ، خاصة وإن أكثر الناس لا يحبون التغيير المفاجيء ويألفون الشيء الذي هم عليه .

إن ذكريات الخلافة الراشدة كانت ماثلة بين أعين كثير من المسلمين ويتمنون أن يعود.الأمر كما كان ، فكانت تقوم الحركة تلو الحركة ولكنها تفشل لأن الأمر أصعب وأقوى مما يظنون وسنن الله في التغيير لا بد أن تؤخذ بالحسبان ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ وبعض خلفاء بني العباس وبني أمية كان فيهم ملك ورحمة ، ولكن المسلمين ظنوا أنه من السهل العودة إلى الخلافة الراشدة ، ولم يدركوا أن الأمر يحتاج إلى إصلاح جذري . والعودة إلى نظام الشورى هو من واجبات المسلمين ، وإن كان وجود الملك والرحمة هو شيء طيب بحد ذاته ، ولكن هذه العودة لا بد لها من خطوات وئيدة صحيحة ولا تأتي بحركات عاطفية انفعالية تتلاشى وتكون الخسارة فيها

أكبر من الربح .

إن كثيراً من علماء المسلمين لم يكونوا راضين عن القصور في دمشق وبغداد ، وقد قدم بعضهم سنداً أدبياً لأمثال حركة النفس الزكية لأنهم كانوا يريدون التطبيق الشامل للإسلام[1]، ولكن الأكثرية من العلماء كانوا لا يرون الخروج على الحكام لأن المفاسد منه أكثر من المصالح لأنهم لا يملكون تكتلاً قوياً لتغيير الحكم بدون فتن وإراقة دماء ، ولذلك اتجهوا إلى الإصلاح من الداخل ، فهذا ربيعة الرأي شيخ الإمام مالك كان إذا انفرد بتلميذه بكى وتأثّر لذهاب الخلافة الراشدة وكيف تفشى الظلم من الذين جاءوا بعدهم ويتمنى اليوم الذي يستطيع فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا سعيد بن المسيب سيد التابعين كان يدعو في صلاته على بني مروان، والخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز يجد صعوبة كبيرة في التغيير لأن التساهلات السابقة قد تأصلت في نفوس الناس ، وكان بنو أمية يظنون أن طاعة الأئمة واجبة في كل شيء وأن الإمام لا يؤاخذه الله بذنب[2].

وبالمقابل فإن بعض العلماء الذين كانوا على صلة قوية بهؤلاء الحكام كانوا يرون أنهم يحتاجون إلى النصيحة وأنهم مسلمون يحكمون بالإسلام وإن كان فيهم ظلم وتجاوزات ؛ فالإمام الزهري

---

(١) الدوري : مقدمة في التاريخ / ٥٠ .

(٢) ابن تيمية : منهاج الاعتدال / ١٦٢ ط - السلفية بمصر .

كان على صلة قوية بالخلفاء الأمويين مع عدم المداهنة في الحق . وإن كان موقف سعيد بن المسيب ومحمد بن أبي ذئب[1] وأمثالهما أصلب وأقوى في الحق .

إذن فهناك حنين دائم إلى النموذج الراشدي ، ودائماً يقاس الحاكم بأبي بكر وعمر ، ولما اختار محمد بن علي العباسي أرض خراسان كموطن لبدء الدعوة ذكر سبب إعراضه عن المدينة ومكة بقوله : (فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر)[2] أي أن المدينتين تتمسكان بذكرى الراشدين ، وهذا يفسر لنا كثرة الحركات من المدينة والتي اصطدمت مع الأمويين أو العباسيين ، والظاهر أن المدينة بعد خروج الحسين بن على أصبحت مركزاً دائماً للمتعاطفين مع الطالبيين ولو أن الحاكم في عصر الحسين اختير اختيارًا من قبل المسلمين فلا أتصور أن الحسين سيخرج عليه ، لأنهم إذا اختاروا فسيكون رجلاً إن لم يكن هو الأفضل فعلى الأقل تجتمع فيه من الصفات المطلوبة قدراً كافياً ، ويقال نفس الشيء عن حركة أهل المدينة على يزيد بن معاوية لقد فوجيء كبار المسلمين يومها من أمثال ابن الزبير والحسين بن

---

(١) من علماء المدينة المعاصرين للإمام مالك ، وكان شديداً في الحق التقى مع الخليفة المنصور في الحج وطلب منه الخليفة أن يبدي رأيه فيه فقال : ورب هذا البنيَّة « الكعبة » إنك لظالم . انظر الذهبي : تذكرة الحفاظ ١ / ١٩١ .

(٢) الدوري : مقدمة في التاريخ / ٥٥ .

علي وعبد الرحمن بن أبي بكر فوجئوا بتحول الخلافة إلى ملك فقال عبد الرحمن بن أبي بكر لمروان بن الحكم لما طلب البيعة ليزيد : (أتريدون أن تجعلوها كسروية قيصرية)[1] .

إن الذين اختاروا التغيير بالقوة ربما لم يكونوا ليفعلوا هذا لو أن الحكم الإسلامي استمر بنقاء وصفاء الخلافة الراشدة ، وربما يقال هنا : فهؤلاء الذين خرجوا على عثمان رضي الله عنه ، فيقال لهم : هؤلاء من أوباش الناس ، والمسلمون كلهم متفقون على تأديبهم والاقتصاص منهم ، ولكن عندما يخرج مثل الحسين بن علي فلا بد أن له تأويلاً وإن أخطأ في الوسيلة .

وهنا لا بد من السؤال : هل كان من المصلحة أن يقطف ثمار الدعوة الإسلامية والجهاد الإسلامي أمثال يزيد بن معاوية ومروان بن الحكم ؟ وهل كان من المصلحة إبعاد المخلصين الأتقياء الأكفاء وتقريب الذين لم يكن لهم حول ولا طول في إنشاء دعائم الإسلام ؟ .

طبعاً ليس من مصلحة الإسلام في شيء أن يحصل مثل هذا ، وأما أن الأمر واقع ودفعه يؤدي إلي فتن فيقال : يدفع بوسائل غير هذه وتستمر محاولة الإصلاح وإرجاع الأمور إلى نصابها .

شيء آخر يقال هنا من بعضهم وهو أنه غالباً ما تنتقل الدعوات أو الحركات الناجحة إلى أيدي النفعيين والانتهازيين وهذا يحدث كثيراً وقد سرقت جهود المسلمين في العصر الحاضر

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٨ / ٨٩ .

ولكن هذه المقولة ليست حتمية لازمة ، ففي العهد الراشدي لم يسمح لانتهازي أن يصل إلى المراتب العليا من الدولة وإذا بحثنا عن ولاة أبي بكر وعمر وعن القادة العسكريين فلا نجد أحداً يؤخذ عليه قلة في الدين والأمانة ولا نجد منافقاً أبداً استطاع التسلل والوصول إلى منصب ما . لماذا ؟ ، لأنه الوعي الكامل لأهداف الإسلام وحتى لا تسرق جهود المخلصين ، ولأنها الفراسة الإيمانية الصادقة حيث لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، هذا مع أن المنافقين كانوا يصلون ويصومون ويتظاهرون بالإسلام .

ونعود لنقول : لسنا هنا في معرض التبرير للحركة التي هي موضع الدراسة أو لغيرها من الحركات التي ذهبت بكثير من قوى المسلمين المذخورة ، ولكن الذي نريد قوله هو أن هذه النقلة من الخلافة إلى الملك أوجد مرارة في النفوس ظهرت على أثرها حركات وثورات .

وكانت حركة محمد بن عبد الله بن حسن أكبر حركة قادها الطالبيون ضد الحكام المعاصرين لهم وكادت أن تزيح الدولة العباسية لولا أنها واجهت وضعاً مستمراً قوياً .

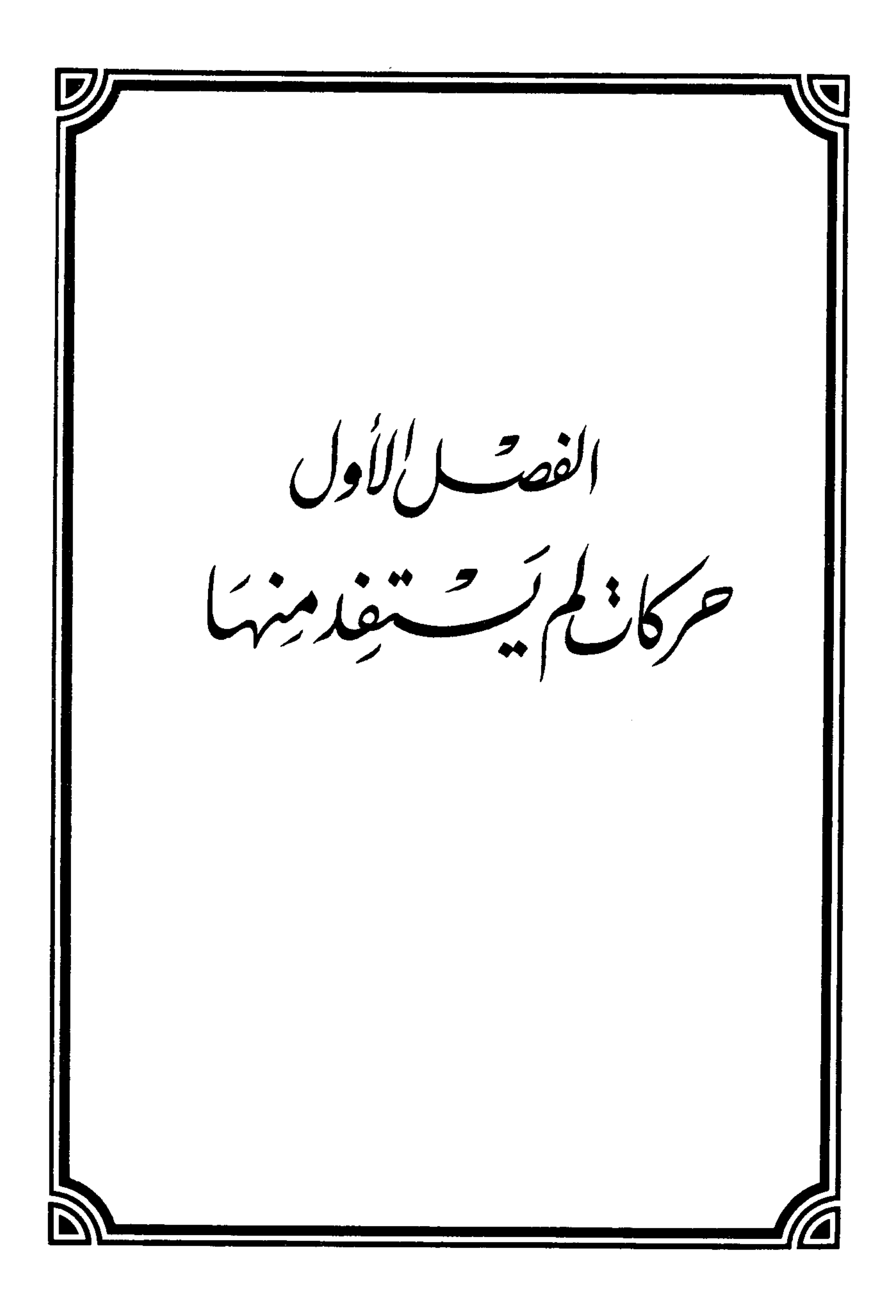
هذا وقبل أن أترك القارىء مع أحداث هذه الحركة فقد قدمت بين يديها موجزاً لحركات سبقتها قامت ضد الدولة الأموية وهو

الفصل الأول من هذا البحث ، والفصل الثاني تكلمت فيه عن حركة محمد النفس الزكية في المدينة ، والفصل الثالث عن حركة أخيه إبراهيم في البصرة لأنها تتمة لما حصل في المدينة وليست منفصلة عنه ، والفصل الرابع تقييم لهذه الحركة ، وختمت بخاتمة ربطت فيها الماضي بالحاضر وكيف نستفيد من ذلك ، وهذا هو القصد من كتابة التاريخ .

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل







الفصل الأول

حركات لم يستفد منها



تمهيد : سبقت حركة محمد بن عبد الله بن حسن حركات قامت في المدينة وفي الكوفة ، وكان الواجب على من يخطط لحركة قوية أن يدرس ويحلل ويستفيد من الحركات السابقة ، كيف قامت ؟ ولماذا فشلت ؟ ويحاول أن يتجنب أخطاءها ويستفيد من إيجابياتها ، خاصة وأن حركتين من الحركات السابقة قام بها جماعة من الطالبيين ، ومن الفرع الحسيني ، حين خرج الحسين بن علي على يزيد بن معاوية ، وخرج زيد بن علي بن الحسين على هشام ابن عبد الملك ، وكانت نهاية هاتين الحركتين مأساة مروعة لآل البيت وللمسلمين .

ولا شك أن آثار هاتين الحركتين كانت ماثلة أمام النفس الزكية وأخيه إبراهيم ووالديهما ، وسنستعرض باختصار أهم هذه الحركات ولماذا قامت ؟ ولماذا فشلت ؟ لذا هل استفاد النفس الزكية منها ؟ وهل استفاد المسلمون كلهم بعدئذ منها ؟

❋ ❋ ❋



المبحث الأول

حركة الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما

في سنة ستين من الهجرة توفي الخليفة معاوية بن أبي سفيان بعد أن عهد بالخلافة من بعده لابنه يزيد ، وكان أول همٍّ يقلق يزيد هو أخذ البيعة من الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وأمثالهما من الذين بايعوا له مكرهين زمن والده ، وقد رفض هذه الطريقة في الحكم عبد الرحمن بن أبي بكر حين صرح بأن الحكم بهذا الشكل هو رجوع للكسروية والقيصرية . ولكن رغم هذه المعارضة ، فقد تربع يزيد ملكاً لدولة إسلامية قوية ، وبدأ بتكليف أمير المدينة الوليد بن عتبة بأخذ البيعة من الحسين وابن الزبير ، وفعلاً استدعيا إلى قصر الإمارة ليبايعا ولكنهما استطاعا التخلص من البيعة بأعذار أبدياها .

وفي صباح اليوم الثاني كانوا في الطريق إلى مكة ، وكان مروان ابن الحكم قد أشار على الأمير الوليد بن عتبة بأخذ البيعة

من الحسين أو قتله فقال الوليد : (والله يا مروان ما أحب أن لي الدنيا وما فيها وأني قتلت الحسين . سبحان الله أقتل حسيناً أن قال : لا أبايع ، والله إني لأظن أن من يقتل الحسين يكون خفيف الميزان يوم القيامة)[1].

استقر الحسين في مكة ، وبدأ الناس يفدون إليه ويلتفون حوله ويعظمونه ، وبدأت الرسائل ترد من الكوفة يدعونه إليهم لينصروه ويحاربوا به الدولة اليزيدية . وكأن هذه الكتب لاقت أذناً صاغية من الحسين ، وشعر بعض الصحابة بهذه الحركة من أهل الكوفة فقدموا النصائح الصادقة المخلصة للحسين أن لا يذهب إليهم ، لأنهم خذلوا والدهم وأخاه الحسن قبل ذلك ، فكيف يُصدَّقون الآن ويُؤتمن لهم ، ولكن الحسين كان مصراً على فكرته في الذهاب إلى الكوفة وقيادة المسلمين هناك ضد بني أمية ، وأرسل مسلم بن عقيل بن أبي طالب إلى الكوفة لأخذ البيعة له قبل وصوله وللاطمئنان إلى صحة رسائلهم .

وصل مسلم إلى الكوفة وبدأ يأخذ البيعة وبايعه ثمانية عشر ألفاً من الرجال ، فكتب مسلم إلى الحسين ليقدم عليه ، وبلغ أمير الكوفة النعمان بن بشير ما جرى مع مسلم فلم يعبأ به ، وربما آثر السلامة فعزله يزيد وولي مكانه عبيد الله بن زياد أمير البصرة وذلك بإشارة سرجون مولى يزيد بن معاوية[2] وصل عبيد الله بن زياد إلى الكوفة وبدأ فوراً بإغراء زعماء القبائل

---

(١) انظر ابن كثير : البداية والنهاية ٧ / ١٤٧ وسنشير إليه (بالبداية) .

(٢) البداية ٨ / ١٥٢ .

والأحياء بالمال ليخذلوا الناس عن مسلم ، وكأنه ضرب على الوتر الحساس ، فكان الناس يتسللون لواذاً تاركين مسلماً وحده يتخفى في أحياء الكوفة من منزل إلى منزل حتى دخل أخيراً منزل امرأة عجوز أشفقت عليه لما علمت أنه مسلم بن عقيل ، ولكن ابنها وشى به إلى المجرم عبيد الله بن زياد فأتي به فقتله رحمه الله .

لم يصل خبر مسلم إلى الحسين فهو يغذ السير متجهاً إلى العراق ، ثم وصله الخبر قبل وصوله الكوفة فتشاور من معه فأصروا على الاستمرار ليأخذوا بثأر مسلم ، وكان الحسين في قلة قليلة من أهل بيته وبعض المتحمسين له فكيف يجابه جيش عبيد الله ! ولكنها العاطفة التي لا تقدر العواقب .

فوجيء الحسين بجيش ابن زياد يمنعه من الدخول إلى الكوفة بل يصر على أخذه أسيراً إلى ابن زياد . عندئذ عرض عليهم الحسين أن يتركوه يرجع إلى مكة أو يذهب إلى ثغر من ثغور المسلمين وكان هذا العرض صادقاً وإيجابياً لما فيه من حقن لدماء المسلمين ، ولكن أنَّى للحاقدين أن يقبلوا بمثل هذه المكارم ، فأصرّ عبيد الله بن زياد على قتال الحسين وحرَّض أمير الجيش عمر بن سعد على قتاله وإن تخاذل فالأمير شمر بن ذي الجوشن وهذا الأخير اجتمعت فيه كل صفات اللؤم والخسة ولذلك أمَّره ابن زياد ، وهكذا نشبت على أرض كربلاء معركة غير متكافئة انضم إلى الحسين بعض أصحاب المروءات من جيش عمر بن سعد وعددهم قليل جداً ، وقاتل الحسين بجيشه الصغير قتالاً

شديداً ، و لم يكن يتصور أن أحداً من المسلمين يتجرأ على قتله وقتل أولاده ، ونحن الآن نستغرب كيف يقدم مسلم على قتل الحسين ، ولكنها النفس البشرية بالتواءاتها وحرصها على المنصب والمال ، وحقد أمثال شمر على أمثال الحسين .

وهكذا وجد من المسلمين من يتجرأ على مثل الحسين وأولاده بل حاول شمر أن يحرق خيام النساء حتى منعه أصحابه ، وكانت نهاية المعركة خسارة أليمة لآل البيت وللمسلمين قتل فيها من آل أبي طالب اثنان وعشرون رجلاً ، واستشهد الحسين رضي الله عنه ، اجتهد الحسين في الخروج وظن أنه لا يسعه إلا ذلك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكن اجتهاده السياسي لم يكن على مستوى الحماس الديني والعاطفة الإيمانية المتأججة . ونستطيع أن نسجل هنا بعض الملاحظات :

(١) إن اتخاذ القرار في هذا الخروج كان عاطفياً و لم يبن على دراسة وافية للمكان والأشخاص . فأما المكان فقد نصحه عبد الله ابن عباس بالذهاب إلى اليمن إن كان لا بد فاعلاً ، وعلَّل له ذلك بأن اليمن فيها جبال وأهلها يحبون والده علياً رضي الله عنه ، ولكنه أصرّ على الذهاب إلى العراق اعتماداً على مكاتبة أصحابه له ، ثم وصله الخبر الصحيح عن خذلان الناس لمسلم بن عقيل وهمَّ بالرجوع لولا أن آل عقيل اتخذوا قراراً عاطفياً آخر وهو الأخذ بثأر مسلم فاستجاب الحسين لهم .

(٢) إن رسول الحسين إلى أهل العراق لم يكن على قدر المهمة

المطلوبة ، فقد جاءته فرصة تمكّن فيها من عدوه عبيد الله ابن زياد فلم يقتله تديناً أو تجبناً كما قال ابن كثير[1] فكيف يخرج على يزيد ويقاتله ولا يقتل عبيد الله وكلهم سواء .
وهذا السلبية سنراها في كثير من الثورات الطالبية بعد .

(٣) كان اختيار الحسين لأهل الكوفة اختياراً في غير موضعه فهم كما وصفهم الأحنف بن قيس في رسالته إلى الحسين : ﴿ **فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون** ﴾[2] ، وكما قال الفرزدق الشاعر للحسين عندما لقيه ذاهباً إلى العراق : (القلوب معك والسيوف مع بني أمية) ، وقال عبد الله بن عمر : (غلبنا بخروجه ولعمري لقد رأى في أبيه وأخيه عبرة ، ورأى من الفتنة وخذلان الناس لهم ما كان ينبغي له أن لا يتحرك) .

فهؤلاء الناس الذين يتفرقون عند المغرم ويجتمعون عند المغنم .

كيف يطمئن إليهم ، والذين سجلوا أسماءهم عند مسلم بن عقيل ثم انسحبوا بهدوء إلى منازلهم ، كيف يطمع بهم ، وقد ملَّهم علي في آخر حياته ودعا عليهم وهم الذين خرج منهم الخوارج وقاتلوه .

---

(١) البداية ٨ / ١٥٣ .

(٢) سورة الروم .

(٤) الشورى لها أهمية كبيرة في حياة المسلمين وهي مبدأ مهم من مباديء الإسلام ، وتزداد أهميتها إذا أخذت بها القيادة ، ويلاحظ هنا أن الحسين لم يستمع للشورى ، فقد أشار عليه عدد من الصحابة والتابعين بعدم الخروج ، أشار عليه ابن عباس[1]، وعبد الله بن جعفر ، وكلمه جابر بن عبد الله وأبو واقد الليثي ، فكيف يترك مشورة هؤلاء كلهم ولا يأخذ برأيهم .

أعتقد أن الحسين كان مصدقاً تماماً لكلام أهل الكوفة في نصرته ، وقد استحوذت عليه قضية الخروج على يزيد ، وتملكته العاطفة البشرية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان ما حصل في كربلاء مأساة عظيمة هزت نفوس المسلمين من الأعماق ، ولكن ليس عجيباً من النظم الاستبدادية أن يكون فيها كعبد الله بن زياد وشمر بن ذي الجوشن وعمر بن سعد الذين يهمهم إرضاء الأمير ولو قتلوا أولاد الأنبياء .

---

(١) هذا كلام ابن عباس : (قال : يا ابن عم إنه قد أرجف أنك سائر إلى العراق فبيِّن لي ما أنت صانع ؟ قال : إني قد أجمعت المسير في أحد يومي هذين إن شاء الله تعالى . فقال ابن عباس : أخبرني إن كان قد دعوك بعد ما قتلوا أميرهم ونفوا عدوهم وضبطوا بلادهم فسر إليهم ، وإن كان أميرهم حي وهو مقيم عليهم قاهر لهم فإنهم إنما دعوك للفتنة والقتال ولا آمن عليك يقلبوا قلوبهم عليك ، إن أهل العراق قوم غدر فلا تغترن بهم) . انظر البداية ٨ / ١٦٠ .

المبحث الثاني
حركة أهل المدينة وموقعة الحرة

كان مقتل الحسين رضي الله عنه عاراً على الدولة اليزيدية ، وقد اعترف يزيد بهذا عندما كان يذكر بأن عبيد الله بن زياد سبب كره المسلمين له ، ولم يستطع يزيد استئصال هذه الكراهية رغم الأموال التي كان يغدقها على الوفود التي تؤم دمشق وتزور القصر . ففي سنة ٦٣ للهجرة زار وفد من أهل المدينة العاصمة دمشق واجتمعوا إلى يزيد فأعطاهم الأموال الكثيرة ، ولكن هذه الأموال لم تثنهم عن خلع يزيد لما اتهموه به من الأفعال القبيحة من شرب الخمور وغيرها من اللهو والصيد[1] ولذلك وبمجرد

---

(١) هذه الاتهامات الموجهة ضد يزيد رددها كثير من المؤرخين ومع ذلك لنسمع رأي العلماء والمؤرخين العلماء فيه . يقول ابن تيمية عنه : (ولا كان من المشهورين بالدين والصلاح ، وكان من شبان المسلمين ، وكان فيه شجاعة وكرم ولم يكن مظهراً للفواحش كما يحكي عنه خصومه) ويتابع ابن تيمية رأيه فيه من ناحية قتل الحسين وموقعة الحرّة فيقول : (ولكنه مع هذا لم يظهر من يزيد إنكار قتل الحسين والانتصار له والأخذ بثأره ، =

وصولهم إلى المدينة خلعوا يزيد ووافقهم على ذلك أكثر أهل المدينة[1] لا يستثنى من ذلك سوى علي بن الحسين وأسرته ومحمد بن علي بن أبي طالب المشهور بابن الحنفية ، وعبد الله ابن عمر .

اتفق أهل المدينة على الثورة وأمَّروا عليهم الأمراء : عبد الله ابن مطيع العدوي على قريش ، وعلى الأنصار عبد الله بن حنظلة[2]، ودعوا إلى الشورى .

وكان هو الواجب عليه ، ثم صار عسكره في المدينة يقتلون وينهبون ، وهذا من العدوان والظلم الذي فعل بأمره .

وقد قال صالح بن أحمد بن حنبل لأبيه: (إن قوماً يقولون إنهم يحبون يزيد فقال : يا بني وهل يحب يزيد أحد يؤمن بالله واليوم الآخر ؟ فقال صالح : يا أبت فلماذا لا تلعنه ؟ قال : يا بني ومتى رأيت أباك يلعن أحداً) .

انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوي ٥ / ٤١٠ .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية : (يزيد بن معاوية أكثر ما نقم عليه في عمله شرب الخمر فأما قتل الحسين فإنه لم يأمر به ولم يسؤه أيضاً) . البداية ٨ / ٢٣٢ .

هذا هو رأي علماء ومؤرخين موثوقين بيزيد ، وليس كما يعتذر محب الدين الخطيب ويبرر له تصرفاته في تعليقاته على « العواصم من القواصم » حيث جعله من خيرة شباب قريش ؟! انظر العواصم / ٢١٥ .

(١) الطبري ٥ / ٤٨٠ .

(٢) والده حنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة استشهد في غزوة أحد .

هذه هي الخطوة الأولى وقد علق عليها ابن عباس عندما سمع أنباء هذه الحركة بأنها أول الفشل لأنهم اتخذوا أميرين والمفروض أن يكون واحداً .

وأما الخطوة الثانية فهي إخراج من في المدينة ممن لا يوافقهم على حركتهم وقد يكون ضدهم،فقرروا إخراج بني أمية فحاصروهم ثم سمحوا لهم بالخروج منها بعد أن أخذوا منهم المواثيق والعهود أن لا يدلوا عليهم ، أو يساعدوا أحداً عليهم ، وكان بنو أمية قد كتبوا إلى يزيد يعلمونه بما حصل لهم ، وعلى الفور قرر يزيد مهاجمة المدينة وإرجاعها إلى طاعته ، فجهز جيشاً عدته عشرة آلاف جندي وجعل أميرهم مسلم بن عقبة المري وهو شيخ ضعيف ولكن له تجربة في الحرب وهو مخلص لبني أمية[1]، وكان في الجيش الحصين بن نمير السكوني وروح بن زنباع الجذامي ، وطلب يزيد من مسلم بن عقبة أن يدعو أهل المدينة ثلاثة أيام فإن رجعوا إلى الطاعة تركهم وإلا فليقاتلهم وطلب منه أن يستبيح المدينة ثلاثة أيام[2].

---

(١) لم يختر يزيد مثل هذا الرجل إلا لأنه أعرابي جلف لا يعرف للمدينة حقها وفضلها وفضل الأنصار . وكان النعمان بن بشير وهو من الأنصار قد طلب من يزيد أن يكون هو أمير الجيش فرفض يزيد وقال له : ليس لهم إلا هذا الغشمة . يعني مسلم الذي يسميه السلف مسرف ابن عقبة .

(٢) الطبري ٥ / ٤٨٤ ، والبداية ٨ / ٢١٩ .

التقى بنو أمية وهم خارجون إلى الشام بجيش يزيد فرجعوا معه ، وكان منهم مروان بن الحكم وولده عبد الملك فاستشارهم أمير الجيش فأشار عليه عبد الملك بخطة محكمة ذكية وهي أن يدخل عليهم من جهة الحرّة الشرقية وفي وقت الضحى وقد حميت الشمس فيتأذّى منها أهلها وهم مستقبلوها ولا يتأذّى جيش يزيد - وهذا نقض للعهد الذي قطعه عبد الملك ووالده لأهل المدينة في أن لا يدلوا الجيش على عوراتهم - . تحصن أهل المدينة وحفروا خندقاً في جانب منها ، ولكنهم لم يكونوا جيشاً منظماً وليس لهم أمير واحد ولكنهم كانوا من الكثرة بحيث إن أهل الشام تهيبوا من قتالهم لمّا رأوهم .

رفض أهل المدينة الدخول في طاعة يزيد لأن شروطه كانت مذلة فلم يبق إلا القتال ، واعتمد أهل المدينة على الحماس الديني والبطولات الفردية ولذلك قاتلوا قتالاً شديداً ، ولكن هذا لا يجدي أمام جيش منظم خاصة وأنه استطاع قسم منه الدخول إلى المدينة من جهة بني حارثة ، فلم يشعر أهلها إلا وقد طوقوا فكان هذا سبب ضعفهم وانهيار معنوياتهم[١] وشيء آخر وهو مقتل أميرهم عبد الله بن حنظلة وهروب الأمير الثاني عبد الله بن مطيع ، واستبيحت المدينة ثلاثة أيام حصل فيها من المآسي والفظائع ما يجعل المسلم يتعجب من وقوع هذا في تلك الفترة ،

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط / ٧٣٨ .

حتى أن صحابياً جليلاً مثل أبو سعيد الخدري يضطر للالتجاء إلى كهف في جبل سلع من جبال المدينة القريبة ويلحقه جندي شامي ثم يتركه عندما يعلم أنه أبو سعيد صاحب رسول الله ﷺ ، وقتل الصحابي معقل بن سنان الأشجعي وقتل عدد غير قليل من أولاد المهاجرين والأنصار ، وهذه الأفعال القبيحة للمجرم ابن عقبة هي التي جعلت العلماء يستقبحون أفعال يزيد[١]، وكان ابن عقبة هذا من الذين يفسدون في الأرض ويظنون أنهم يحسنون صنعاً فقد قال عندما حضره الموت في طريقه إلى مكة لحصار ابن الزبير قال : (اللهم إني لم أعمل قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله عملاً أحب إليَّ من قتل أهل المدينة)[٢].

وهكذا انتهت هذه الحركة بسرعة ، وكانت نتائجها مثار حزن وأسى لكل المسلمين .

علَّق شيخ الإسلام ابن تيمية على وقعة الحرّة فقال عن يزيد : (وهذه من كبائره ، ولهذا قيل لأحمد : أتكتب الحديث عن يزيد فقال : لا ولا كرامة أوَليس هو الذي فعل بأهل المدينة ما فعل)[٣].

---

(١) ورد في الحديث الصحيح : « **من ولي أمر الأنصار فليُحسن إلى مُحسنِهم وليتجاوز عن مسيئهم ، ومن أفزعهم فقد أفزع هذا الذي بين هاتين** » وأشار إلى نفسه ﷺ . انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ٢ / ٦٢٢ .

(٢) الطبري ٥ / ٤٩٧ .

(٣) المنتقى (مختصر منهاج السنة) للذهبي / ٢٩٥ .

وقال ابن كثير : (وقد وقع في هذه الأيام الثلاثة من المفاسد العظيمة ما لا يحد ولا يوصف)[1] .

ولا شك أن أهل المدينة اجتهدوا وظنوا أن عملهم هذا هو الصواب لما لاحظوه من الفرق بين الحكام السابقين وبين يزيد ، ولكن الذين يجيزون الخروج على الفاسق يشترطون الاستعداد الكافي وأن يكون الأمل بالنصر قوياً حتى لا يحصل مفاسد من سفك الدماء وهتك الأعراض . بينما نلاحظ أن أهل المدينة لم يفعلوا هذا ولا توقعوا نتائج هذه الحركة ، بل كانت حركة سريعة ثائرة على يزيد فتحمَّس الناس لخلعه ، ولم تدرس نتائج هذه الحركة وردة الفعل عند الدولة في دمشق ، وهل يتحملون ردة الفعل هذه وماذا أعدُّوا لها .

ومن هنا نحكم بأن الحركة أخطأت في تقديرها وبقيت ذكراها للدرس والعبرة .



(١) البداية ٢٢٢/٨

المبحث الثالث
حركة عبد الرحمن بن الأشعث

هذه الحركة بدأت وانتهت في العراق ، وهي حركة قوية جداً كادت أن تسقط الدولة الأموية ، وتسقط عبد الملك بن مروان من الحكم ، وليس غرضنا هنا سردها بالتفصيل ، بل نريد دراسة سبب فشلها وهل كانت يا ترى في ذهن محمد بن عبد الله بن حسن عندما خرج في المدينة .

عرض موجز للحركة :

بعد أن استقرت الأمور لعبد الملك بن مروان رمى أهل العراق بأمير ظالم حازم ليضبطه له ، رماهم بالحجاج بن يوسف الثقفي ، وقد قام الحجاج بالمهمة المطلوبة ولكن على كره من الناس ودَخَلٍ في قلوبهم عليه ، ولثقة عبد الملك به ولّاه على كل المشرق ، فكان الحجاج يرسل الأمراء من جهته على الأقاليم البعيدة ، ويجهز الجيوش للفتح في البلدان القاصية ، وهو الذي

ولّى قتيبة بن مسلم الباهلي خراسان وما وراء النهر ففتح تلك البلاد ، وجهز جيشاً كبيراً لفتح السند وولّى عليه عبد الرحمن بن الأشعث ، وكان في هذا الجيش وجوه أهل العراق وعلماؤهم .

سار ابن الأشعث بخطة حكيمة وهي الزحف ببطء حتى يستقر الإسلام في البلاد المفتوحة ، ولكن الحجاج لم يعجبه هذه الطريقة ، وبدأ يرسل الرسائل إلى عبد الرحمن يُوَبِّخه ويعَنِّفه على هذا الإبطاء . والحقيقة أنهما كانا يتبادلان الكره ، فثار عبد الرحمن لهذا الأسلوب من الحجاج وقرر الثورة عليه بعد أن استشار قواد الجيش وأهل الرأي ، ووضح له خطته في الزحف وأن فصل الشتاء قادم ولا يستطيعون التوغل في أرض العدو .

وافق الجيش على ذلك وكرُّوا راجعين لمقاتلة الحجاج ، ثم تطور بهم الحال حتى خلعوا عبد الملك نفسه .

وصلت أخبار رجوعهم إلى الحجاج فتخوَّف جداً وبدأ يرسل الرسائل إلى عبد الملك حتى يمده بالجنود والسلاح والأموال ، علم القائد العسكري المشهور المهلب بن أبي صفرة بحركة ابن الأشعث فأرسل إليه : (إنك يا ابن الأشعث قد وضعت رجلك في ركاب طويل ، ابق على أمة محمد ﷺ ، انظر إلى نفسك فلا تهلكها ودماء المسلمين فلا تسفكها)[1]. كما كتب المهلب إلى الحجاج ينصحه : (لا تقاتل أهل العراق حتى يصلوا إلى بيوتهم ويستأنسوا بنسائهم وأولادهم ، فعند ذلك تنتصر

---

(١) البداية ٩ / ٣٦ .

عليهم)[1].

وصل ابن الأشعث إلى العراق وقد قويت حركته جداً وانضم أكثر الناس إليه ، ودخل البصرة ووافقه على خلع الحجاج وعبد الملك أكثر الفقهاء والقرّاء ، ثم بدأت المعارك بينه وبين جيش الخلافة بقيادة الحجاج كان النصر فيها حليفاً لابن الأشعث ، وكانت كتيبة القرّاء والفقهاء من أقوى الكتائب والناس تبعاً لهم ، خشي عبد الملك جداً من هذه الحركة فأرسل ابنه عبد الله وأخاه محمداً يبلغان الناس بأنه يعزل الحجاج ويولي أخاه محمداً وليكن الأشعث أميراً على أي بلد شاء .

انزعج الحجاج جداً لهذا العرض ، ورفضه أهل العراق أيضاً – مع أنه كان خيراً لهم ، فعادت المعارك من جديد ، وعاد مركز الحجاج أقوى من الأول ؛ وكانت أكثر الجولات لصالح الثائر ولكن الحجاج وجيش الشام صابروا وصبروا ، وكانت خبرة الحجاج في القتال أفضل من خبرة خصمه فكانت الوقعة الأخيرة التي تسمى دير الجماجم لصالح الحجاج وانهزم ابن الأشعث وفر ومن معه راجعاً إلى سجستان من المكان الذي خطط فيه للثورة ، وهرب من هرب إلى قتيبة بن مسلم في خراسان وقتل من قتل ، وأسرف الحجاج في القتل فلم يقدر على أسر أحد ممن اشترك في المعركة إلا وقتله ، كما قتل كثيراً من العلماء ، مثل ابن أبي ليلى وسعيد بن جبير ، وعفا عن عامر

---

(١) البداية ٩ / ٣٦ .

الشعبي ، وكانت نهاية ابن الأشعث أن التجأ إلى ملك السند الكافر « رتبيل » الذي ذهب أصلاً لفتح بلاده ، ثم إن الحجاج أرسل تهديداً لهذا الملك أن يرسل له الثائر ، فغدر رتبيل بابن الأشعث وقتله وقيل أرسله مقيداً وقتل في الطريق .

وملاحظاتنا على هذه الحركة ما يلي :

١ - إن مبايعة أهل العراق لابن الأشعث جاءت في لحظات عاطفية ثورية لم تكن نتيجة لمعرفة تامة به ، وهل يستحق عن جدارة أن يكون أميرهم بل خليفتهم .

٢ - ليس عند الثائر الحنكة العسكرية الكافية مع أن جيشه هو الأكثر عدداً وعدة والمؤونة ترسل إليه يومياً بعكس أهل الشام .

٣ - كان من المفروض بهم أن يقبلوا ما عرض عليهم عبد الملك ابن مروان ففيه إيقاف لسفك الدماء وإزالة الظالم الغاشم الحجاج .

٤ - كان أهل العراق كما وصفهم المهلب في رسالته للحجاج : (إن لأهل العراق شدة في أول مخرجهم فليس شيء يردهم حتى يصلوا إلى نسائهم ويشموا أولادهم فقاتلهم عندها ..)[1] .

٥ - إن أمثال الشعبي وابن جبير كانوا مجتهدين في هذا لما

---

(١) البداية ٩ / ٣٦ .

يرون من ظلم الحجاج وفجوره وسفكه للدماء ، وبغضه لعلي بن أبي طالب وبنيه ولذلك ورد في الحديث : « **يخرج من ثقيف كذاب ومبير** » والكذاب هو المختار بن أبي عبيد ، والمبير – وهو الذي يهلك الناس – فهو الحجاج .

٦ – خسر المسلمون خسارة كبيرة بفقد أمثال سعيد بن جبير وابن أبي ليلى وغيرهم من العلماء ، وقد ظنوا أنهم يستطيعون اقتلاع هذه الدولة المستقرة الظالمة بهذه السهولة ، والأمر أصعب من ذلك فإن الدولة الراسخة لا تزال بهذه الطريقة .





المبحث الرابع
حركة زيد بن علي بن الحسين

مرة أخرى يُخدع رجل من الطالبيين بأهل الكوفة ، يطلبون منه المجيء إليهم ثم يبايعونه ، وعند المعركة يتفرقون عنه فيلتفت فلا يجد معه إلا شرذمة قليلة ، وهذا ما حصل لزيد بن علي في خروجه على بني أمية .

إن زيد بن علي من عظماء آل البيت ، علماً وعملاً وشجاعة ، وكان يرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وربما كان متأثراً في ذلك برأي المعتزلة الذين يرون الخروج على الحكام المسلمين إذا كانوا ظلمة ، ويرون ذلك من الأمر بالمعروف ، ورأي زيد هذا مخالف لرأي أخيه محمد الباقر ، الذي لم يفكر يوماً بالخروج على الحكام ، ومخالف كذلك لرأي والده علي بن الحسين (زين العابدين) . وكان زيد يرى ألا يطلق لقب « إمام » إلا على الذي يتصدى للظلم ويعمل بما يرى ، وهذا مخالف لرأي الرافضة الذين يقولون بإمامة علي بن الحسين والباقر إلى آخر الاثنى عشر ... الذين لم يخرجوا على أحد .

نشأ زيد وتربى في المدينة المنورة ، حيث تواجدت الأسرتان الحسنية والحسينية ، وقد وصل إلى الكوفة لقضية مالية بحتة حيث

ادعى أميرها السابق خالد بن عبد الله القسري أنه أودع أموالاً عند زيد وغيره ، وبعد التحقيق في القضية من قبل الأمير الجديد يوسف بن عمر ، أراد زيد الرجوع إلى المدينة ، ولكن كيف يتركه أهل العراق بدون أن يزينوا له البقاء معهم وأنهم سيبايعونه على قتال بني أمية وأن مئة ألف سيف معه .

نصح محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب زيداً في عدم البقاء معهم وذكَّره بما فعلوا بالحسين قبله ولكنه اطمئن إليهم أخيراً وآثر البقاء ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

استقر زيد في الكوفة وبدأ بالتنقل من منزل إلى منزل وأهلها يسجلون أسماءهم ويبايعون ، وكانت الأرقام بالآلاف ، وكاتب المدن المجاورة والأقاليم فاستجابوا له وحدد لهم موعداً للخروج .

علم أمير العراق يوسف بن عمر بما يفعل زيد فأخذ يستعد لمجابهته ، وعلم زيد أن أمير العراق قد اطلع على ما يجري في الخفاء ، وخشي من السجن وأن تفشل الحركة فأعلنها قبل أوانها ، ويفاجأ أهل الكوفة بشعارات زيد (يا منصور أمت) بدأت تدوي ، واجتمع إليه بعض الناس ، وبدأ بهم المعركة ، ولكنهم فئة قليلة ، وهو ينتظر الجموع التي سجلت أسماءهم والتي ظن أنها شحم فإذا هي ورم فقال : سبحان الله ، أين الناس[1]؟ .

---

(١) البداية ٩ / ٣٣٠ .

قاتل زيد والذين معه قتال الأبطال وهزموا أهل الشام عدة مرات ، ولكن رماة السهام تكاثروا عليه فقتل رحمه الله ودفن في الكوفة وانتهت هذه الحركة بأقصر وقت .

كانت حركة زيد حركة سريعة ومفاجئة لم يخطط لها ، ولم تخطر بباله أصلاً لولا أن شجعه أهل الكوفة على ذلك ، وزينوا له باطلهم وأوهموه بجموعهم الكبيرة وربما كان سبب خذلانهم له المناقشة التي حصلت بينه وبينهم حين سألوه عن رأيه في أبي بكر وعمر فأجابهم : (غفر الله لهما ، ما سمعت أحداً من أهل بيتي تبرَّأ منهما وأنا لا أقول فيهما إلا خيراً)[1] وأضاف : (إني أدعو إلى كتاب الله وسنة نبيه ، وإحياء السنن وإماتة البدع ، فإن تسمعوا يكن خيراً لكم ولي ، وإن تأبوا فلست عليكم بوكيل)[2] فرفضوه ولهذا سموا الرافضة من يومئذ .

تعجل زيد في الخروج قبل الاستعداد الكامل ، وقد علق الإمام الزهري على مقتل زيد فقال : (أهلك أهل هذا البيت العجلة)[3] . وأضاف زيد مأساة أخرى لأهل البيت وللمسلمين عامة ، فلا أقام حكومة إسلامية أفضل ، ولا ترك هذا الأمر وقام بتوعية المسلمين من الداخل .

---

(١) البداية ٩ / ٣٣٠ .

(٢) البداية ٩ / ٣٣٠ .

(٣) الأصفهاني : مقاتل الطالبيين / ١٤٣ ، ويقصد الإمام الزهري بأهل البيت آل علي ابن أبي طالب ، وأنهم يتعجلون قبل إحكام الأمر واختيار الأنصار المناسبين .

المبحث الخامس
العبَّاسيُّون

نحن هنا أمام حركة أو قل ثورة ناجحة ، وهي من أخصب التجارب التي كان على « النفس الزكية » أن يستفيد منها ، خاصة وأنه عاصر بعض أحداثها ، ويعلم عن كثب من هو أبو جعفر المنصور ، ومن هو السفاح .

تدل خطة العباسيين على ذكاء وخبرة بالأمور السياسية والاجتماعية ومعرفة عميقة بأحوال الناس ، فقد اختار مؤسس الدعوة العباسية محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الزمان والمكان والأشخاص ، أما المكان فهو إقليم خراسان وعلل ذلك بقوله : (إن الشام أموية ولا يعرفون إلا آل أبي سفيان ، والبصرة عثمانية[1] ، والكوفة شيعة علي ، وأما الجزيرة[2] فحرورية « خوارج » مارقة أعراب ، مسلمون في أخلاق النصارى ، وأما مكة والمدينة فتعيشان

---

(١) نسبة إلى عثمان بن عفان أي يدينون بالكف عن القتل والقتال ويقولون : كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل .

(٢) يقصد إقليم الجزيرة، بين دجلة والفرات والذي يقع ما بين سورية والعراق وتركيا.

على ذكرى أبي بكر وعمر ، وأما خراسان ففيها العدد الكثير والجلد الظاهر ، وصدوراً سليمة وقلوباً فارغة لم تتقسمها الأهواء)[1] . فأهل خراسان بتعبير اليوم « مادة خام » ، هذا عدا عن بعدها عن مركز الدولة دمشق ، واختار الزمان المناسب ، وهو ضعف الدولة بعد عمر بن عبد العزيز ، وهشام بن عبد الملك حيث تتابعت الأحداث بعد هشام بالانقسام بين البيت الأموي وظهرت البدع الكلامية في أواخر أيامهم مما زاد من نقمة علماء أهل السنة عليهم ، وكان الطالبيون قد خرجوا على الدولة زمن هشام - حركة زيد بن علي - وكذلك حركة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر مما أرهق الدولة الأموية فجاء العباسيون ليقطفوا الثمرة .

وأما من ناحية التخطيط فقد جعل بينه وبين خراسان قاعدة في الوسط وهي الكوفة ، وإن كان أهلها شيعة رافضة ، فالدعوة العباسية رفعت شعاراً عاماً يرضى عنه الشيعة ويرضى عنه أهل السنة تقريباً ، هذا الشعار هو أن المبايعة للرضا من آل محمد ﷺ بدون تعيين اسم ولا تعيين هل هو البيت العباسي أم من الطالبيين ، وانتبه الشيعة متأخرين إلى أن العباسيين كانوا يخططون لأنفسهم ولكن بعد فوات الأوان .

كما أن العباسيين لم يرفعوا شعاراً واضحاً جداً من ناحية الفكر والعقيدة وإن كانوا قد تبنوا المذهب السني بعد نجاحهم وقربوا علماء السنة .

---

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم / ٢٩٣ ، ابن الأثير : الكامل ٣ / ١٦ .

بدأت الدعوة العباسية سنة ٩٩ للهجرة تقريباً ، وكان الدعاة يجتمعون سنوياً بالمؤسس محمد بن علي العباسي الذي استقر في قرية صغيرة مغمورة في الأردن من بلاد الشام اسمها الحميمة ، ومع علم الدولة الأموية أحياناً ببعض تحركات العباسيين ولكنها لم تشعر بخطرهم الكامل ، إلا نصر بن سيار أمير خراسان فقد شعر بالخطر الداهم فأرسل إلى الخليفة في دمشق يحذره وينذره ولكن دون جدوى .

وبعد اثنين وثلاثين سنة كان الجيش العباسي يزحف من المشرق ولا يقف أمامه شيء وانتهت الدولة الأموية عند نهر الزاب في معركة فاصلة .

فأين ما كان يفعله آل علي بن أبي طالب من الخروج السريع المفاجيء بدون إعداد ولا تخطيط ، من فعل العباسيين حيث كان التنظيم هرمياً ، القائد في الحميمة واثنا عشر نقيباً في الكوفة وكل نقيب عنده سبعون داعية .

إن بني العباس لم يعتمدوا على حب الناس لهم كما اعتمد الطالبيون ، بل كانوا واقعيين يستخدمون قدرات الآخرين بأساليب ماهرة .

وهكذا كانت تجربة العباسيين تجربة ثرَّة لو أراد محمد – النفس الزكية – أن يستفيد منها .

الفصل الثانى

حركة النفس الزكية فى المدينة

١- تمهيد

٢- المبحث الأول : شخصية قائد الحركة .

٣- المبحث الثانى : المنصور يستدرجه .

٤- المبحث الثالث : المعركة غير المتكافئة .

٥- المبحث الرابع : المدينة بعد هذه الحركة .



تمهيد : نجحت الدعوة العباسية نجاحاً باهراً واستطاعت الوصول إلى الحكم ، وبويع عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الملقب بالسفاح[1] كأول خليفة في هذه الدولة ، وكان من أسباب نجاحها رفعها لشعار يرضى عنه الجميع حتى لا تصطدم بأحد وينضوي الكل تحت لوائها ، وهذا الشعار هو البيعة للرضا من آل محمد ﷺ ، فظن الطالبيون من أحفاد علي رضي الله عنه أن لهم نصيباً في الحكم ، ولثوراتهم السابقة على بني أمية وفضلهم وحب الناس لهم ، وكانت العلاقة بين البيت العباسي والبيت الطالبي علاقة طيبة ، فهذا أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية كان له أتباع وجماعة لما أحس بدنو أجله أفضى بأسرار جماعته وأسمائهم إلى محمد بن علي العباسي ، وقد ذكر الطبري أن أبا هاشم قال لمحمد بن علي : (إن هذا الأمر الذي يرتجيه الناس فيكم)[2].

وذكر ابن سعد أن أبا هاشم أوصى لمحمد بن علي ودفع إليه كتبه ، وصرف الشيعة إليه[3] ، وهذا داوود بن علي العباسي ينصح زيد بن علي بعدم الخروج على هشام بن عبد الملك إشفاقاً

---

(١) بويع له بالخلافة بعد مقتل أخيه إبراهيم الإمام ، وكانت خلافته أربع سنين ، ولقب بالسفاح لجوده بالمال .
انظر في ترجمته : سير أعلام النبلاء ٦ / ٧٧ ، البداية لابن كثير ١٠ / ٨٥ .

(٢) الطبري ٧ / ٤٢١ .

(٣) الطبقات ٥ / ٢٣٨ .

عليه من الفشل ، ولكن الطالبيين يفاجئون أن الدعوة عباسية محضة ، والدولة عباسية أيضاً ولا نصيب لأحد معهم ، وكان الأجدر بهم غير هذا ، لأن الذي خطط ونفذ هم العباسيون فهل يسلموها لغيرهم لقمة سائغة .

وأعتقد أن أهل المدينة أنفسهم كانوا يظنون أن الرضا من آل محمد ﷺ سيكون من الطالبيين الذين يعيشون بين أظهرهم ويجلونهم ويحبونهم ، ولكن العباسيين خيبوا ظنهم ، واعتقد أهل المدينة أنهم خدعوا وحاول أبو سلمة الخلال الذي كان يسمى وزير آل محمد تحويل ثمرة النجاح إلى آل الحسن أو الحسين ولكنه فشل أيضاً ، وكان أعقل الطالبيين الذي عرف أن العباسيين هم الذين خططوا ونجحوا ولا يمكن أن يعطوها لغيرهم هو الإمام جعفر الصادق .

علم الخليفة الأول السفاح ما يدور بخلد آل الحسن من أنهم الأحق بالخلافة ولا بد من الدعوة لأنفسهم ولكنه كان يعاملهم معاملة حسنة ولا يحب إزعاج هذه الأسرة المنكوبة زمن بني أمية .

لم تطل مدة السفاح وجاء بعده أخوه عبد الله بن محمد الملقب بالمنصور ، وهو من الملوك الدهاة ومن ذوي الحزم والعزم والتدبير ، وأمثاله حريصون جداً على ألا يعارضهم أحد ، وإذا شعروا بشيء من هذا بطشوا بخصومهم بطشاً شديداً ، ومن تسوِّل له نفسه

أن له نصيباً في الملك فسيكون عقابه الموت غالباً ، فقد قتل عمه عبد الله بن علي لأنه طمع في الخلافة ورأى نفسه جديراً بها ، كما قتل أبا مسلم الخراساني لما خاف من نفوذه وقوة شخصيته .

لم يبايع محمد بن عبد الله بن حسن وأخوه إبراهيم أبا جعفر المنصور ، وهذا أمر يخيفه ولا يمكن أن يسكت عنه ، فكان شديد الحرص على الإمساك بهما قبل تفجر الموقف ، وفي الوقت نفسه كان محمد وأخوه يبالغان في التخفي عن أنظار المنصور حتى قامت هذه الحركة في المدينة ثم في البصرة .

وقبل تفصيل أحداث هذه الحركة لا بد من توضيح أثر البيئة الثقافية والوراثية في شخصية محمد وأسباب خروجه .





المبحث الأول
شخصية قائد الحركة

١- أثر الوراثة

ولد محمد بن عبد الله بن حسن عام ثلاث وتسعين للهجرة في المدينة ، والده عبد الله بن حسن من سادات الهاشميين ديناً وعقلاً ، ووالدته هند بنت أبي عبيدة الأسدي من قريش ، ولذلك يسمى بصريح قريش لأن أمه وجداته كلهن عربيات و لم تكن واحدة منهن من الجواري .

اشتهر محمد بالعلم والزهد فلقب بـ « النفس الزكية » وأصبح من سادات بني هاشم علماً وشجاعةً وكرماً ، ويظهر أن اسمه المطابق لاسم الرسول ﷺ كان مما شجع والده وشجعه هو على أنه المهدي المنتظر .

وأما رأي العلماء فيه ، فقد وثقه النسائي وابن حبان ، وقال عنه البخاري : لا يتابع على حديثه .

وقد وصفوه بأنه أسمر شديد السمرة طويلاً ضخماً[1] ، وكأنه قد اجتمعت فيه صفات تؤهله للقيادة ، فهو ديِّن شجاع كريم ، زاده الله بسطة في العلم والجسم ، ولكن ما هي البيئة التي عاش فيها هذا القائد ، وما هو أثرها في تكوين شخصيته ، وهل الوراثة لها أثر في ذلك ؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه لنتبين كيف أثرت هذه البيئة في نجاحه أو فشله .

عاشت الأسرة الطالبية بفرعيها الحسني والحسيني في المدينة المنورة وكان لهاتين الأسرتين الأثر الواضح في أهلها ففي الأسرتين علماء مشهورون بالعبادة والتقوى متميزون بالكرم والشجاعة ، فعميد الأسرة الحسينية هو علي بن الحسين الملقب بـ « زين العابدين » تفرغ للعلم والعبادة[2] ولم يخرج على الحكام ولا فكر بهذا أبداً ، والظاهر أن ذكرى كربلاء كانت تؤرقه كثيراً ، فقد حضرها شاباً صغيراً ولم يفلت من القتل إلا لأنه كان مريضاً ، وهو الذي يقول فيه الفرزدق الشاعر :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته   والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم   هذا التقي النقي الطاهر العلم

وكان فقراء المدينة لا يدرون من أين تأتيهم الأموال حتى توفي علي ابن الحسين فانقطعت فعلموا أنها منه ، ولا يأنف أن يجلس

---

(١) البداية ١٠ / ٩٥ .

(٢) النووي : تهذيب الأسماء / ٣٤٣ .

تلميذاً في مجلس زيد بن أسلم يستمع ويزداد علماً ، ولما عوتب في ذلك قال : (يجلس الرجل حيث يستفيد) .

وسار ولده محمد الملقب (بالباقر) على نهجه ، متفرغاً للعلم والعبادة ، وهو من أئمة أهل السنة ، سُئل يوماً : هل يوجد من أهل البيت من يسب أبا بكر وعمر ؟ فقال : لا ، بل أحبهما وأتولاهما وأستغفر لهما[1] ومن ولد محمد هذا جعفر الصادق وهو الذي ينسب إليه المذهب الجعفري في الفقه وهو عميد الأسرة المعاصرة للنفس الزكية ، وكان أهل السنة يعظمونه ويجلونه ويعتبره ابن تيمية من أئمة أهل السنة ، وقد نسب إليه الرافضة أقوالاً كلها كذب عليه مثل كتاب « الجفر » المحشو بالتنبؤ بالغيب ، وكان مثل والده لا يرى الخروج على الحكام لما رأى من تفرق الناس وغلبة الأهواء عليهم[2].

وهو على بصيرة من شيعة عصره الذين يكذبون عليه وقد حزن حزناً شديداً على عمه زيد بن علي ، وكان يراه أهلاً للخلافة ، يقول فيه عمر بن مقدام : (كنت إذا نظرت إلى جعفر ابن محمد علمت أنه من سلالة النبيين)[3] ويربي أسرته على

---

(١) طبقات ابن سعد ٥ / ٣٢١ .

(٢) انظر : المجلة التاريخية التي تصدر في العراق ٤ / ٤٣٨ ، مقال الدكتور ناجي حسن عن (علوية الدعوة العباسية) .

(٣) النووي : تهذيب الأسماء ١ / ١٥٠ .

منهجه في العلم والعبادة والأخلاق النبيلة . قال لابنه موسى : (يا بني من كشف حجاب غيره انكشفت عورات بيته ، ومن سلَّ سيف البغي قُتل به ، ومن داخل السفهاء حقر ، وإياك والدخول فيما لا يعنيك فتذل لذلك)[1] .

وأما الفرع الحسني – والذي منه النفس الزكية – فيرجع إلى الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب . وهو إن لم يكن مثل زين العابدين أو الصادق في العلم ولكن يظهر من كلامه ما يدل على سيادته وشرفه ومعرفته بشيعتهم وما هم عليه من الضلال ، فقد سأله رجل ألم يقل رسول الله ﷺ : « **من كنت مولاه فعليٌّ مولاه** » فقال : (بلى ، ولو أراد الخلافة لخطب الناس فقال : أيها الناس ، اعلموا أن هذا ولي أمركم من بعدي ، وهو القائم عليكم فاسمعوا له وأطيعوا . ويلكم لو كانت القرابة تنفع بلا عمل لنفعت أباه وأمه ، ويلكم أحبونا إن أطعنا الله على طاعته وأبغضونا إن عصينا الله على معصيته)[2] .

ومن ولد الحسن هذا عبد الله بن حسن والد محمد النفس الزكية وهو شيخ بني هاشم في عصره ، ومن سادات أهل المدينة وعبادها وعلمائها[3]، كان له شرف وهيبة في نفوس

(١) أبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء ٣ / ١٩٥ .

(٢) البداية ٩ / ١٧١ .

(٣) ابن حبان البستي : مشاهير علماء الأمصار / ١٢٧ .

الناس[1]، وكان من المقربين للخليفة عمر بن عبد العزيز وهو موثق عند علماء الحديث .

ومن أعمام محمد وبالتأكيد لهم أثر في شخصيته : حسن بن حسن وكان متديناً ورعاً فاضلاً مات في سجن أبي جعفر المنصور مع أخيه عبد الله بن حسن ، ومن أعمامه إبراهيم بن حسن ، وجعفر بن حسن ، وداود بن حسن ، وكان فيهم مروءة وكرم تضامنوا كلهم مع أخيهم عبد الله عندما أخذه المنصور إلى بغداد وكانوا يجلونه ويحبونه حتى أن الحسن بن حسن قرر ألا يلبس ثوباً ليناً أو يأكل طيباً ما دام عبد الله على حاله في السجن[2].

هؤلاء بنو الحسن يصفهم الطبري بأنهم كانوا أهيب في صدر الناس من الأسد[3] ، وهذا الفرع سيكون له أثر في تاريخ المسلمين حيث يؤسس إدريس بن عبد الله بن حسن دولة في المغرب عرفت باسم دولة الأدارسة ، وكاد أخوه يحيى أن يؤسس دولة في المشرق .

وهذه الأسرة تختلف عن الفرع الحسيني حيث نجدها تلح في طلبها وأحقيتها في الحكم وكثير من أفرادها يعتقدون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على مذهب الزيدية المنسوبة إلى

---

(١) السخاوي : التحفة اللطيفة ٢ / ٣٩٤ .

(٢) مقاتل الطالبيين / ٢٨٥ .

(٣) الطبري ٧ / ٥٣٦ .

زيد بن علي وخلاصة رأيهم : « يجب الخروج على الحكام الظلمة إذا توفرت القدرة على ذلك » ، وهذا الرأي يختلف عن رأي أهل السنة الذين يرون عدم الخروج على الحكام المسلمين الذين يحكمون بشرع الله ولكن عندهم ظلم أو تقصير في بعض الواجبات .

ورث النفس الزكية كثيراً من صفات هاتين الأسرتين ، حب للعلم ، وورع وتعبد حتى أنه لقب بالنفس الزكية ، وسنرى أثر ذلك في تصرفاته العملية وشجاعة تذكرنا بشجاعة علي رضي الله عنه وحمزة بن عبد المطلب والحسين بن علي ، فهو يتصدى للعشرات ويهزمهم ، كرم وسخاء ومروءة وشهامة جعلت الناس تميل إليهم حتى غالوا فيهم .

وإذا كانت الصفات الخَلْقية والخُلُقية تنتقل إلى الأبناء والأحفاد فهي أوضح ما تكون في الأسرة الطالبية ، فكلهم يجابهون الخصوم مجابهة علنية ولا يعولون كثيراً على أسلوب المكر والدهاء ، فابن عباس يطلب من علي رضي الله عنه أن يرسله إلى معاوية ليعرف كيف يتعامل معه فيقول له علي : (لست من مكرك ومكر معاوية في شيء ولا أعطيه إلا السيف حتى يغلب الحق على الباطل)[1] ويظفر علي بألدّ أعدائه في صفِّين ثم يتركه

---

(١) الذهبي : تاريخ الإسلام الجزء الخاص بالخلفاء الراشدين نشرة حسام القدسي صفحة / ٣٢٤ وسنشير إليه بتاريخ الإسلام .

مروءة وشهامة ، وهكذا فعل ابنه محمد بن الحنفية عندما ظفر بمروان بن الحكم في معركة الجمل تركه وقد سأله مروان القرابة والرحم ، ويظفر مسلم بن عقيل بعبيد الله بن زياد في الكوفة فلا يقتله تديناً لأنه يعتقد أن هذا من الغدر .

هذه المجابهة للخصوم هي التي سنراها في تصرفات محمد وأخيه إبراهيم ، فلا خديعة ، ولا حيلة ، ولا مكر ، بل مصارحة تامة بما يدبرون حتى أن الأساليب السياسية الصحيحة لا يستعملونها ، بل يعتمدون على الصراحة والقوة . وهذا لا ينفع في عصر بني أمية وبني العباس . وشيء آخر وكأنه موروث في هذه الأسرة وهو العجلة في الخروج قبل إحكام الأمر إحكاماً صحيحاً ، فنرى كثيراً منهم يتعجلون قبل الأوان وقبل الموعد المضروب ، إما بسبب إلحاح أنصارهم أو خشية انكشاف أمرهم كما حصل لزيد بن علي ، والعجلة في الحروب قبل إحكام الخطة هي من أسباب الفشل ، وقد كانت عجلة عمار بن ياسر في صفين من أسباب فشل خطة المرقال هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الذي كان يزحف زحفاً بطيئاً وكاد أن يقرب من النصر ، ولما أرسل عمر بن الخطاب حبشياً من المدينة لمساعدة المثنى بن حارثة في الجبهة الفارسية قال : (إن هذه الحرب لا يصلح لها إلا الرجل المكيث) قالها عمر عندما أشار إليه البعض بتعيين فلان قائداً لهذا الجيش .

هذه بيئة محمد من ناحية النسب ، بيئة هاشمية محضة فوالده عبد الله بن الحسن وأم والده فاطمة بنت الحسين ، فاجتمعت أخلاق الأسرتين فيه ، فهو يرى في نفسه أهلية للخلافة وهذا ما سنتكلم عليه في البيئة الثقافية .

٢- البيئة الثقافية

إن بيئة المدينة في هذا العصر بيئة سنية محضة فشيخهم هو الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة كما يسمونه وهو يمثل الاتجاه السني السلفي بكل معنى الكلمة . وله أثره الواضح في المدينة فتلامذته كثيرون جداً ، ودروسه في المسجد النبوي مستمرة وبه يضرب المثل (لا يفتى ومالك في المدينة) .

وهناك علماء غير مشهورين مثل محمد بن أبي ذئب ، وعبد الحميد بن جعفر ، وابن الماجشون ، وجعفر الصادق وكلهم يمثلون الاتجاه السني ، إلا أنني أعتقد أن محمد النفس الزكية كان متأثراً أيضاً بفكرة الزيدية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واستحقاق الإمامة بالطلب لا بالوراثة ويعتقدون بوجوب الخروج على الجائرين[1] ، وهذه الفكرة تلتقي مع إحدى المباديء الخمسة للاتجاة المعتزلي[2] الذي كان متفشياً في هذا العصر .

---

(١) المنية والأمل : أحمد بن يحيى المرتضى / ٨٩ .

(٢) المبادىء الخمسة عندهم هي : التوحيد ، العدل ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، المنزلة بين المنزلتين ، الوعد والوعيد .

أورد أبو الفرج الأصفهاني في رواية تدل على أن داعية واصل بن عطاء شيخ المعتزلة قد جاء المدينة واستجاب له بعض الناس منهم محمد بن عبد الله بن حسن[1]. وهناك رواية أخرى عند أبي الفرج أيضاً وهي أن أخاه موسى بن عبد الله بن حسن اعتذر عنه بأنه كان يجمع الناس أي لا يحب أن يظهر بمظهر المخالف للغير[2] ، وأعتقد أن محمداً لم يكن متأثراً بالمعتزلة بالمعنى العقائدي أي أنه لا يحمل عقائدهم ويدافع عنها ويعتبر نفسه منهم وإنما وافقت آراؤهم في الخروج هوى في نفسه .

الجانب الثاني الذي له أثره في تكوين شخصية محمد هو موضوع أحقية آل البيت في الحكم ، ومشكلة الغلو فيهم ، وقضية المهدي المنتظر .

أما أحقية آل البيت في الحكم بسبب قرابتهم من الرسول ﷺ فهذا واضح من رسالة محمد إلى خصمه أبي جعفر المنصور التي يقول فيها : (... فإن الحق حقنا وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا ، وحظيتم بفضلنا) ثم يقول في نهاية الرسالة : (وأنا أولى بالأمر منك وأوفى بالعهد)[3] .

وعندما سألت الشيعة زيد بن علي عن موقفه من أبي بكر وعمر ، ترحَّم عليهما وتولاهما ولكنه استدرك وقال : إن الحق كان لعلي

---

(١) مقاتل الطالبيين / ٢٣٨ .

(٢) مقاتل الطالبيين / ٢٥٠ .

(٣) الطبري ٧ / ٥٦٧ .

ولكن علياً نفسه بايعهما وعمل معهما وخلافتهما صحيحة فرفض الشيعة هذا الرأي .

ومن هذه النصوص يتبين أن محمداً كان يعتقد أنه أحق بالخلافة من غيره لقرابته أو على الأقل هذا سبب مهم عنده ، ولا شك أن كثيراً من آل البيت يومها كان فيهم من الصفات ما يؤهلهم للخلافة ، ولكن الاعتقاد بأنهم أحق من غيرهم بسبب القرابة فهذا شيء آخر لا نوافقهم عليه .

صحيح أن الرسول ﷺ أوصى المسلمين بعترته ولكن الوصية بالغير للاستفادة منهم وحفظهم شيء والولاية شيء آخر .

وأما مشكلة التشيع والغلو فنحن لا نستطيع أن نعتبر النفس الزكية من الشيعة بالمعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة لأن الأسرة كلها لم تكن تؤمن بعقائد الشيعة ويرفضون بشدة الغلو في آل البيت ، بل يتوعدون من يغلو فيهم بأنهم لو حكموا لقطعوا أيديهم وأرجلهم من خلاف ، فهذا جعفر الصادق يُسأل : أكان منكم أهل البيت أحد يقر بالرجعة[1] ؟ قال : لا . ثم سُئل : أكان منكم أهل البيت أحد يسب أبا بكر وعمر ؟ قال : لا بل أحبهما وأستغفر لهما[2].

وهذا الحسن بن الحسن يقول للشيعة : (ويحكم أحبونا لله وإن عصينا الله فأبغضونا)[3].

---

(١) يعتقد الشيعة أن الله يحيي أئمتهم بعد موتهم لينتقموا من أعدائهم أي أهل السنة الذين استأثروا بالحكم دونهم. انظر الشيعة في الميزان لمحمد جواد مغنية /٣٨.

(٢) طبقات ابن سعد ٥ / ٣٢١ .

(٣) المصدر السابق ٥ / ٣٢٠ .

إن كلمة الشيعة في العصور الأولى لم تكن تعني أكثر من المناصرة والمؤازرة والحب لآل البيت وليس بها عقائد مقننة وكما قال بعض الباحثين المعاصرين : (إن الفرق بين تشيعهم وبين التشيع المعروف الآن وكما استقر منذ أوائل العهد العباسي هو كالفرق بين الزهد في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين وبين التصوف الذي شابه عناصر غنوصية كما عرف لدى محيي الدين بن عربي والسهروردي[1]، والفرق بين حب جماعة من الصحابة أو التابعين لعلي بن أبي طالب من أمثال سليمان بن صرد الخزاعي وحجر بن عدي وبين الشيعة في عهد الصادق حيث نشأ المذهب الكلامي لهم فرق شاسع .

وبهذا يتبين لنا أن عبد الله بن حسن وأولاده لم يكونوا من المغالين أو الشيعة بالمعنى الاصطلاحي ، ولكنهم كانوا يظنون أن لهم حقاً في الخلافة لقرابتهم ، وهذا الاعتقاد إن كان على إطلاقه فهذا لا يسلم به وإن كان لصفات خاصة تؤهلهم لهذا المنصب الخطير فهذا هم وقريش سواء .

أما قصة المهدي المنتظر فهذه ناحية مهمة أثّرت في شخصية

---

(١) أحمد محمود صبحي : نظرية الإمامة / ٣٥ والمقصود بالعناصر الغنوصية هي نظريات الإشراق لدى فلاسفة الإسكندرية ، وقد أدت هذه النظريات إلى القول بوحدة الوجود عند ابن عربي والسهروردي وهي كفر محض .

محمد فقد ورد في أحاديث كثيرة - بعضها ضعيف وبعضها صحيح - قصة ظهور المهدي في آخر الزمان ، وأنه سيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً واسمه يطابق اسم النبي ﷺ (محمد بن عبد الله) وهو من ولد فاطمة[1] .

---

(١) إن كلمة مهدي من ناحية اللغة تعني الرشاد والدلالة كأن يدل غيره على الطريق الصحيح ، ومنه وصف الرسول ﷺ لعيسى ابن مريم عليه السلام : « **يوشك أن يلقى عيسى ابن مريم إماماً مهدياً** » مسند أحمد ٢ / ٤١١ ، وكما دعا رسول الله ﷺ لأبي سلمة : « **اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين** » مسلم ٢ / ٦٣٤ . وغلب مصطلح المهدي على رجل يخرج في آخر الزمان يحكم بالعدل وهو من آل البيت ، وقد ورد في ذلك أحاديث يصححها أئمة الحديث مثل ما روي عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **المهدي من عترتي من ولد فاطمة** » رواه أبو داود والبخاري في التاريخ ، قال عنه الشيخ الألباني : صحيح ، وما روي عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « **ينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم المهدي فقال صلِّ بنا فيقول : لا إن بعضهم أمير بعض تكرمة الله لهذه الأمة** » قال ابن القيم : إسناده جيد .
وهناك أحاديث فيها إشارة إلى المهدي مثل ما روي عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطيء اسمه اسمي** » رواه أبو داود والترمذي وقال الألباني : إسناده حسن وقد حمله جميع العلماء على المهدي . وقد ذكر كثير من العلماء تواتر أحاديث المهدي منهم : القرطبي ، والمزي ، وابن قيم الجوزية ، وابن حجر ، والشوكاني . وقد ادعى ناس المهدية مثل عبد الله القداح الباطني الإسماعيلي وابن تومرت في المغرب وهم كذابون وقد يدعيها أناس لرجال لم يطلبوها ولم يدعوها مثل ادعاء

وهناك روايات تقول بأن النفس الزكية كان يظن أنه هو المقصود بذلك ، وكان يختفي عن أنظار الناس ويكاتبهم بذلك ، وشاع بين الناس أنه المهدي ، وشجعه والده على ذلك وبدأ الناس يميلون إليه[1] ، حتى أنه خرج مرة في المدينة أثناء تخفيه عن المنصور ومعه أمير المدينة زياد بن عبيد الله الحارثي فتصايح الناس : المهدي ، المهدي[2] ، ثم توارى بعد ذلك فلم يظهر حتى خرج على الدولة العباسية .

وهنا قد يتبادر إلى الذهن سؤال : هل كان محمد يعتقد فعلاً أنه المهدي ؟ ، لا أستبعد ذلك فربما أثر عليه الذين حوله مثل والده وأقربائه وأهل المدينة أيضاً فأقنعوه بأنه هو المهدي خاصة وأن اسمه محمد بن عبد الله وأنه من ولد فاطمة ، وهو يرى ظلم

السنوسية أن صاحبهم محمد بن محمد بن علي السنوسي هو المهدي « تفسير المنار ٩ / ٥٠١ » ، وادعى أناس أن أحمد الشهيد الذي قتل في معركة مع الشيخ في الهند هو المهدي وهو لم يدع هذا .

كل هذا الاستغلال والادعاء للمهدوية لا يمنع أن يكون في آخر الزمان رجل صالح يقيم العدل ويحكم بالإسلام ويكون هو المهدي الذي ذكر في الأحاديث .

والمسلمون غير مكلفين بمهدوية رجل معين بل يصدقون الأحاديث الصحيحة ، والمهدي كما قلنا هو الرجل الصالح العادل الذي يرشد الناس ، انظر بحث « الأحاديث الواردة في المهدي في ميزان الجرح والتعديل » وهو بحث قدم لرسالة الماجستير من الطالب عبد العليم عبد العظيم في جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة – كلية الشريعة لعام ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م .

(١) ابن طباطبا : الفخري / ١٦٦ .

(٢) الطبري ٧ / ٥٢٩ .

ملوك الدولة الأموية وظلم أبي جعفر المنصور فدخل في روعه أنه هو المهدي ، ولم ينتبه إلى السنن الكونية وأن ظهور المهدي لا بد له من مقدمات يستطيع فيها أن يحكم المسلمين حكماً إسلامياً صحيحاً وأن المهدي في آخر الزمان عند نزول عيسى عليه السلام .

حاول أبو جعفر المنصور القيام بسياسة مضادة فادعى المهدوية لابنه محمد ولقبه المهدي مع أنه اعترف في إحدى جلساته مع حاشيته أنه ليس المهدي ولكنها سياسة منه[1]، وقد نصح جعفر الصادق بأن ابنه عبد الله بن حسن ليس المهدي المذكور، ولكن الذي يخطط للخروج على الدولة وأنه أحق من غيره بالملك يصدق هذه الأشياء بسهولة ، ويتفاءل بها ويعتبرها من المشجعات ، وإن لم يعتقدها اعتقاداً جازماً .

والناس في فورة حماسهم وتغلب العاطفة على العقل والتفكير السليم يشجعون مثل هذه الأمور لعلهم يظفرون بشيء مكبوت في صدورهم ، وهذا التشجيع من عوام الناس الذين غالوا في آل البيت غلو محبة وليس غلو كفر ، جعل النفس الزكية يشعر بأنه هو رجل الساعة الذي سينقذ الناس ، ويرجعها إسلامية صافية ووالده يظن هذا فيه ويقول : (فوالله إني لأرجو أن يفتح الله به خيراً)[2] كل هذا جعل محمداً يتخفى ويدعو الناس إليه حتى يخرج في المدينة كما سنفصله في المباحث القادمة .

---

(١) مقاتل الطالبيين / ٢٤٧ .

(٢) الطبري ٧ / ٥٣٩ .

المبحث الثاني

المنصور يستدرجه

بدأ النفس الزكية يدعو لنفسه أثناء حكم الدولة الأموية ، وذلك بعد مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وجاء بعد الوليد مروان بن محمد الذي هو آخر خلفاء الدولة الأموية والملقب بمروان الجعدي أو مروان الحمار .

واستمر النفس الزكية في تجميع الناس حوله ولم يتعرض له مروان بأي أذى ، وجاءت الدولة العباسية ، واكتفى أول ملوكها السفاح بمعاتبة والده عبد الله بن حسن ولم يتعرض له ولا لأخيه بأذى بل كان يكرم عبد الله بن حسن ويحسن إليه ، ثم جاء المنصور .فبدأ بالبحث عنهما وألح في ذلك إلحاحاً شديداً[1]. وقد قابل محمد وأخوه هذا الإلحاح بشدة الاختفاء والانتقال من بلد إلى آخر ، بحيث لا يستقر لهما قرار ، فمرة في عدن ومرة في السند أو البصرة أو الكوفة ، وهذه رحلات شاقة ولكنهما تحملا ذلك في سبيل ما يطالبان به .

---

(١) مقاتل الطالبيين / ٢٥٨ .

وفي هذه الرحلات كان محمد يدعو الناس إليه ويأخذ البيعة منهم لنفسه ، وكان المنصور يشعر ويحس بما يدبر محمد فطلب من والدهما عبد الله بن حسن أن يدله عليهما ، فقال له عبد الله : (سبحان الله أسلمهما لك حتى تقتلهما ، لو كانا تحت قدمي ما دللتك عليهما)[1]. ولكن المنصور لا يهدأ له بال فيرسل عام ١٣٨ هـ الفضل بن صالح العباسي أميراً على الحج ويأمره بالبحث عن النفس الزكية وأخيه فلم ينجح في مهمته ، واعتذر والدهما بأنهما مشغولان بالصيد ولا يحضران إلى المدينة .

كلف المنصور أمير المدينة زياد بن عبيد الله الحارثي بالبحث عنهما وإحضارهما ، ولكن زياداً يتساهل في هذا الموضوع لأنه يعلم أن ظفره بهما سيعرضهما للقتل وهو لا يحب أن يُقتل أمثال هؤلاء على يديه[2] فعزله المنصور وكلف أميراً آخر وهو محمد بن عبد الله القسري بهذه المهمة وزوده بالمال اللازم ولكن هذا الأمير أبطأ في البحث عنهما ، وكأنه تعمد ذلك لأنه لا يريد التلوث بدماء آل البيت فعزله المنصور أيضاً ، وقرر أخيراً إرسال رجل لا يعرف قدراً لآل البيت ولا لغير آل البيت ولا يهمه إلا طاعة الخليفة الذي عينه ، ووجد ضالته في أعرابي جلف مغمور وهو رياح بن عثمان المري ، ورياح هذا يعلم أنه لم يرسل إلى المدينة أميراً إلا لهذه المهمة ولولا ذلك ما طمع في هذا

---

(١) البداية ١٠ / ٨١ ، مقاتل الطالبيين / ٢١٦ .

(٢) الطبري ٧ / ٥٣٠ .

المنصب ، ورجل من هذا النوع يفعل كل شيء لإرضاء مرؤوسه ، وقد سبق المنصور إلى هذا الأسلوب يزيد بن معاوية حين أرسل إلى أهل المدينة – عندما ثاروا عليه – شيخاً أعرابياً جافياً وهو مسلم بن عقبة المري (من نفس قبيلة رياح) فلما تغلب عليهم آذاهم إيذاءً شديداً[1]. ورياح يعلم أن المنصور لم يختره لرحم قريبة ولا لمعروف قام به للدولة العباسية وإنما للبطش بآل الحسن .

وصل رياح إلى المدينة فكان أول عمل قام به هو الاجتماع بعبد الله بن حسن ، فعرفه بمهمته وطلب منه ولديه ، وهدده بالقتل إن لم يأت بهما ، وبدأ بتنفيذ ذلك فأدخل السجن عبد الله بن حسن وإخوته الحسن بن الحسن ، إبراهيم بن حسن ، وكذلك حسن بن جعفر بن حسن وسليمان وعبد الله ابني داود بن حسن ، ومحمد وإسماعيل وإسحاق أبناء إبراهيم بن حسن ، وعلي بن حسن بن حسن الملقب بالعابد[2] ، وعليّ هذا هو الذي قدم نفسه للسجن تضامناً مع أبيه وأعمامه ، جاء

---

(١) وفي العصر الحاضر استعمل الاستعمار هذا الأسلوب فأوصل إلى الحكم في الوطن الإسلامي حكاماً لا يحلمون بالوصول إلى منصب رئيس دولة لو كانت الظروف طبيعية ، وعندئذ يكونون عبيداً أذلاء لأسيادهم ويذلون شعوبهم في سبيل بقائهم ، وكما استخدم الجاسوس الإنجليزي « لورنس » البدو في مهمته المرسومة له وهي تحطيم الدولة العثمانية وإقامة دول صغيرة حسب اتفاقية « سايكس – بيكو » .

(٢) الطبري ٧ / ٥٣٧ .

بعد صلاة الفجر إلى رياح وطلب منه أن يسجنه مع قومه فسجنه ، وكان بنو الحسن يعرفون أوقات الصلاة بأجزاء يقرأها عليّ هذا ، وكان لا يفك قيده في السجن وإذا سُئل عن السبب أجاب : (لا أفك القيد حتى أجتمع أنا وأبو جعفر عند الله فيسأله لم قيَّدني)[1].

كل هذا حصل بأمر من المنصور ، أُخذت الأسرة كلها ووضعت في السجن ولكن محمداً وإبراهيم بقيا في تخفيهما وتنقلاتهما .

ألح رياح في طلب محمد وسمع أنه يعيش في جبل رضوى[2] فطلب من أحد جنوده واسمه عمرو بن عثمان بن مالك الجهني أن يذهب ومعه مجموعة من الفرسان للبحث عن محمد في جبل رضوى .

علم محمد بقدوم الرجال إليه فأسرع الفرار ، وكان معه جارية ولها طفل ترضعه فوقع الطفل من بين يديها وتمزق بين الصخور فما كان من محمد أمام هذا الواقع البائس والمنظر المؤلم إلا أن يتمثل هذه الأبيات :

---

(١) مقاتل الطالبيين / ١٩٣ ، ولا شك أن فعل أبي جعفر فيه تعسف وظلم ، وبأي منطق يأخذ الأسرة كلها بجريرة واحد منها او اثنين .

(٢) جبل بالقرب من ينبع ، المدينة التي على ساحل البحر الأحمر ، وهو من جبال قبيلة جهينة .

منخرق السربال يشكو الوجى تنكبه أطراف مرو حداد[1]
شرَّده الخوف فأزرى بـه كذاك من يكره حر الجلاد
قد كان في الموت له راحة والموت حتم في رقاب العباد[2]

وهذه غاية المعاناة الجسدية والنفسية حيث يشعر بأن خوفه من السلطان قد أزرى به ، وجعله مشرداً في الجبال ، وكأنه يقول لا بد من الإسراع في الثورة .

ويدخل محمد المدينة في إحدى المرات ، ويضيق رياح عليه حتى يُلجئه إلى التدلي ببعض الآبار وقد انغمس فيه إلى رأسه ويتظاهر بأنه يناول أصحابه الماء ، ويمر رياح فيراه ولا يعرفه ويتعجب من قوة ذراع هذا الأعرابي .

لا يكتفي المنصور بهذا الإلحاح في الطلب بل يستعمل كل وسائل المكر والخداع للبحث عن الثائر أو استدراجه للثورة قبل أوانها ، فقد بعث برجل إلى المدينة يتظاهر بأنه من شيعة آل الحسن في خراسان وما زال هذا الرجل يتردد على عبد الله بن حسن - قبل سجنه - حتى وثق به فسأله الرجل : متى يخرج محمد ؟ فقال عبد الله : إن ابنيَّ خارجان لوقت كذا وكذا[3]، وهذا المكر من قبل المنصور لا يقابله إلا قلوب غافلة عن هذا

---

(١) المرو : هي الحجارة البيضاء . والشاعر يشكو من التنقل بين الجبال الشاهقة والحجارة الحادة .
(٢) الطبري ٧ / ٥٣٥ . الكامل لابن الأثير ٤ / ٣٧٣ .
(٣) الطبري ٧ / ٥٢٠ ، مقاتل الطالبيين / ٢١٢ .

المكر وأناس عندهم سذاجة في هذه الأمور .

حاول المنصور المحاولة الأخيرة عندما زار الحجاز حاجاً عام ١٤٤ هـ فاتصل بعبد الله بن حسن وهو في سجنه وطلب منه أن يدله على ولديه . رفض عبد الله هذا العرض إلا أن يخرجه من السجن ثم يجتمعان لمناقشة هذا الموضوع ، وبالمقابل رفض المنصور طلب السجين وأكمل طريقه إلى مكة وبعد انتهاء الحج لم يجعل طريقه على المدينة بل أقام بمكان قريب من المدينة اسمه الرّبَذة وأرسل إلى أمير المدينة يطلب منه سجناء آل الحسن .

أخرج السجناء مقيدين بالأصفاد إلى معسكر المنصور ثم ما لبث أن ارتحل باتجاه العراق آخذاً معه هؤلاء السجناء فأودعهم سجناً قرب الكوفة .

سمع جعفر الصادق بخبر خروج آل الحسن من سجن المدينة ليأخذهم المنصور إلى سجن آخر يكون قريباً منه ، فنظر إليهم الصادق وبكى . وأما المنصور فتلقّاهم بالإيذاء الشديد وما زال يضرب أخاهم لأمهم محمد بن عبد الله بن عمرو العثماني حتى اسود كل جسمه وكان يلقب من قبل بالديباج لجماله ، وحزن عليه أخوه عبد الله بن حسن حزناً شديداً وعلق هذا التعليق الذي يدل على شدة ظلم ذوي القربى قال : كنا نستجير به في دولة بني أمية – لأنه عثماني نسبة إلى عثمان بن عفان من بني أمية – والآن في دولتنا يضرب ويهان .

كان سجن المنصور مظلماً حتى أنهم لم يعلموا أوقات الصلاة ومات منهم في السجن إبراهيم بن حسن ثم أخوهم الكبير عبد الله بن حسن ، ومن حيل المنصور أنه أرسل إلى عبد الله بن حسن قبل وفاته من يخبره بأن ابنه محمد خرج وقتل ، ليزيد في حزنه وهمه ، كما توفي في هذا السجن محمد بن إبراهيم بن حسن وعليّ بن حسن بن حسن .

عقب ابن كثير على تعذيب آل الحسن ووفاتهم في سجن المنصور فقال : (فعلى المنصور ما يستحقه من عذاب الله ولعنته)[١] ، ومات أخوهم لأمهم محمد بن عبد الله العثماني[٢] ، ومرة أخرى يستعمل المنصور الحيل والمكر فيرسل رأس العثماني هذا إلى خراسان ، وهناك يحلفون للناس أن هذا رأس محمد بن عبد الله فيظن الناس أنه محمد بن عبد الله بن حسن فالذي يفكر منهم بمساعدته يقلع عن هذه الفكرة .

ولا تزال حيل المنصور كثيرة لم تنفذ بعد ، فكان يكاتب النفس الزكية مظهراً أن هذه الرسائل من قواد الجيش العباسي الذين يتظاهرون بالتأييد للنفس الزكية بل يدعونه ويشجعونه على الظهور ، وقد صدق محمد ما تضمنته هذه الرسائل وقال : (لو التقينا لمال القواد كلهم إليّ)[٣]، وهذا مما دعا أبا جعفر المنصور لأن يقول : (استخرجت الثعلب من جحره) .

---

(١) البداية ١٠ / ٨٢ .

(٢) الطبري : ٧ / ٥٤٨ ، وقال ابن كثير معلقاً على مقتل العثماني : لا جزاه الله خيراً أي المنصور .

(٣) الطبري : ٧ / ٥٥٩ .



المبحث الثالث

المعركة غير المتكافئة .

بعد هذا التشريد ، وبعد هذا العذاب النفسي والجسدي وبعد خداع المنصور له ، تعجل محمد وخرج في المدينة ، وذلك قبل الموعد المقرر والمتفق عليه مع أخيه إبراهيم الذي سيخرج في البصرة ، وبذلك يكون قد أوقع أخاه في ارتباك لم يتهيأ له فما هي أسباب هذا التعجل ؟ :

(١) إن السبب الرئيسي هو إلحاح أنصاره عليه بأن يظهر ويقودهم ضد الدولة القائمة ، وقبل أن تتهيأ له كل الأسباب التي تساعده على ذلك ، فقد دخل عليه عبيد الله بن عمر وعبد الحميد بن جعفر(١) وغيرهم من أنصاره وشجعوه على الخروج وشددوا في هذا حتى أنهم قالوا : يجب أن تخرج ولو كنت وحدك .

(٢) إن حالة والده عبد الله بن حسن وأعمامه وعذابهم في سجن المنصور سببت له ألماً شديداً وربما أثر ذلك في تعجيله .

---

(١) هو أحد فقهاء المدينة ، وثقه ابن حصين . وكان الثوري ينقم عليه خروجه مع النفس الزكية . انظر السخاوي : التحفة اللطيفة ٣ / ٩١ .

(٣) الحالة النفسية التي عاشها مشرداً ، مضطهداً ، قلقاً لا يشعر بطعم الاستقرار ويتوقع دائماً أن تصل إليه يد أبي جعفر ، هذه الحالة مزعجة جداً ، وقد حدث لبعض من شاركوا في حركات فاشلة أن يسلموا أنفسهم للسلطة الباغية مفضلين ذلك على التشريد والقلق[١].

(٤) ملاحقة أمير المدينة له ، ويذكر صاحب مقاتل الطالبيين أن أمير المدينة كان قد أرسل موسى بن عبد الله بن حسن إلى العراق فخاف محمد على أخيه فخرج واستطاع إنقاذه قبل وصوله للعراق[٢].

وليست هذه هي المرة الأولى التي يتعجل فيها آل البيت في ثوراتهم المتتالية فقد تعجل قبله زيد بن علي كما ذكرنا سابقاً والحسين بن عليّ في ذهابه للعراق قبل التأكد والتمكن[٣].

---

(١) كان سعيد بن جبير رحمه الله ممن اشترك في ثورة عبد الرحمن بن الأشعث وعندما انتهت الحركة بالفشل فرَّ سعيد من بطش الحجاج واستقر أخيراً في مكة ، وينصحه أحد محبيه أن يترك مكة لأن واليها خالد بن عبد الله القسري سيسلمه للحجاج ولكن سعيد يستسلم ويقول : (والله لقد فررت حتى استحييت من الله) ويُؤخذ ويقتله الحجاج .

(٢) مقاتل الطالبيين / ٢٦٠ .

(٣) إن كثيراً من الحركات التي تعجلت في الظهور خوفاً من انكشاف أمرها قد فشلت ، ومن الأمثلة على ذلك حركة أحمد بن نصر الخزاعي في بغداد زمن فتنة المأمون والأمين ، فقد جمع أحمد بن نصر الناس =

قرر محمد أخيراً الثورة من المدينة المنورة فأعلنها في شهر جمادي الآخرة من عام ١٤٥ هـ وقد علم أمير المدينة بخروجه فخاف خوفاً شديداً وأحضر قبيبة بني زهرة لحمايته[١]، وفي تلك الليلة التي اعتبرت أنها ساعة الصفر ، جاء محمد من مكان يسمى المذاد[٢] ومعه مائتان وخمسون رجلاً ، فبدأ بالسجن فكسر الأبواب وأخرج من كان فيه وطلب من أصحابه ألا يقتلوا أحداً كراهية منه لسفك الدماء[٣]، ثم توجه إلى مكان الإمارة التي تسمى دار مروان ، وقد حاول أمير المدينة رياح بن عثمان أن يتحصن بها فصعد إلى أعلى وهدم درجها ولكن الثوار صعدوا وراءه وأنزلوه ومن معه وحبسوه في نفس الدار .

حوله للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واستجاب له كثير من الناس وبايعوه على الأمر بالمعروف ، ولما استلم الحكم الواثق بن المعتصم قرر أحمد ومن معه الخروج عليه لبدعته في القول بخلق القرآن ، ولكن الخطة كشفت قبل ليلة واحدة من الموعد المقرر ، وفشلت الحركة كلها ، وقتل أحمد بن نصر رحمه الله بأمر من الواثق ، وكان من أكابر العلماء كما يصفه ابن كثير في البداية ١٠ / ٣٠٤ . ولذلك كانت الحركة العباسية من أنجح الحركات حين حررت إقليم (خراسان) وزحفت من هناك بشكل علني ومكشوف .

(١) الطبري ٧ / ٥٥٤ .

(٢) اسم حصن لبني حرام من بني سلمة غربي مسجد الفتح . انظر السمهوري : وفاء الوفاء ٤ / ١٣٠٢ .

(٣) هذا شيء طبيعي لأنه ليس من جنس الثائرين الذين يبيدون الأخضر =

دخل محمد المسجد النبوي قبل الفجر وانتظر مجيء الناس للصلاة فلما تجمعوا صلى بهم ثم ارتقى المنبر وألقى خطبة بين فيها ظلم أبي جعفر المنصور وأنه ما خرج إلا لتصحيح الانحراف الواقع . ثم ذكر للمصلين أنه قد أخذت له البيعة من كافة الأقاليم .

بايع أهل المدينة محمداً على القتال ضد الظالم أبي جعفر و لم يتخلف عن البيعة إلا عدد قليل جداً ، منهم الضحاك بن عثمان ، وعبد الله بن خالد بن حزام ، وخبيب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير ، ويروي الطبري أن الإمام مالك استفتي في جواز الخروج مع محمد وقيل له : إن في أعناقنا بيعة لأبي جعفر فقال : (إنما بايعتم مكرهين وليس على مستكره يمين وعندئذ أسرع الناس للانضمام إلى محمد ، ويضيف الطبري بعد هذا أن مالكاً لزم بيته)[1] وهذه الرواية مستبعدة عندي لأن من تتبع سيرة الإمام وعلم طبعه وطريقة حياته يعلم أنه كان بعيداً كل البعد عن استعمال القوة ضد الحاكم[2].

= واليابس وقد استغرب فعله هذا بعض أصحابه الذين يظنون أن الذي يخرج للملك لا بد أن يسفك الدماء .

(١) الطبري ٧ / ٥٦٠ .

(٢) ربما ذكر حديث « **ليس على مستكره طلاق** » فاستغل هذا لبطلان بيعة أبي جعفر ، خاصة وأنه سُئل عن هذا الحديث أثناء ثورة النفس الزكية فصرح بهذا الحديث لأنه لا يكتم العلم . انظر : أبو زهرة : الإمام مالك . عبد الحليم الجندي : مالك .

أيَّد كثير من العلماء حركة النفس الزكية منهم عبد الله بن يزيد بن هرمز شيخ الإمام مالك ومحمد بن عجلان وكان موضع تقدير أهل المدينة وله حلقة في مسجد رسول الله ﷺ ، وكانوا يلقبونه بـ « حسن البصري المدينة »[1]، وأبو بكر بن أبي سبرة الفقيه ، وعبد الله بن عامر الأسلمي القارىء ، وعبد العزيز بن محمد الدراوردي[2]، كما أيده أحفاد الزبير بن العوام وكانوا فرساناً علماء كالمنذر بن محمد ومصعب بن ثابت[3]، كما أيدته القبائل العربية المجاورة للمدينة : جهينة ومزنة وأسلم وغفار وخرج معه من الطالبيين المشهورين : موسى وعبد الله ابنا جعفر الصادق والحسن ويزيد وصالح بنو معاوية بن عبد الله بن جعفر والحسين وعيسى ابنا زيد بن عليّ ، وعليّ وزيد ابنا الحسن بن زيد بن الحسن ، كما عارضه منذ البداية عدد يسير جداً من الطالبيين من بني جعفر اعتقدوا أن ثورته فاشلة ولذلك لا داعي للتورط فيها .

استقرت الأحوال لمحمد في المدينة ، وبدأ بتنظيم أموره الإدارية فبعث الولاة على المدن والأقاليم وبدأ بالمدينة فأمَّر عليها عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير وعيَّن لها قاضياً عبد العزيز بن المطلب المخزومي ، ورئيس شرطتها : أبا القلمس عثمان بن عبيد الله بن

(١ ، ٢ ، ٣) مقاتل الطالبيين : ٢٨٢ – ٢٨٥ .

عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأما ديوان العطاء فيرأسه عبد الله ابن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة[1].

ثم أرسل الولاة إلى البلدان المجاورة ، فولي الحسن بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر على مكة المكرمة ، واستطاع هذا الأمير أن يدخلها ويأخذها من واليها العباسي السري بن عبد الله .

وولّى أخاه موسى بن عبد الله على الشام ولكن أهل الشام لم يستجيبوا له وقالوا : مللنا القتال[2]، واستعمل على اليمن القاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر وعلى مصر ابنه عليّ بن محمد ولكنه ما إن وصل إليها ليدعو لأبيه حتى قتلوه ، وأما ابنه عبد الله فقد سار إلى خراسان ليأخذها من العباسيين ، و لم يوفق أيضاً بل هرب خوفاً من أهلها ، وأغلب الظن أن بعض الأقاليم كانت تشعر شعوراً داخلياً أن هذه الحركة لن يكتب لها النجاح فلماذا يتعبون أنفسهم بتأييدها والشام معروفة بميلها لبني أمية .

علم المنصور بخروج محمد ، وكان الذي أوصل له الخبر رجل من المدينة من آل أُويس العامري خرج مسرعاً إلى العراق حتى أنه قطع المسافة في تسع ليال ووصل ليلاً ، وكان المنصور نائماً

---

(١) الطبري ٧ / ٥٥٩ ، ويلاحظ من هذا أن أهل المدينة بشكل عام كانوا يؤيدون محمداً في حركته حيث نجد المخزومي والزهري والعمري والزبيري من أمرائه وقواده .

(٢) الطبري ٧ / ٥٧٢ .

فألَّح في الدخول فأخبره فأعطاه المنصور تسعة آلاف درهم[1] .

إن هذا الخبر لم يفاجىء المنصور واستقبله ببرودة أعصاب وبدأ يعد الرد اللازم بمكره ودهائه . وأول ما بدأ به أن استشار أصحاب العقول الراجحة الذين يعلم ما عندهم من رأي حصيف في الملمات .

استشار عمه عبد الله بن علي والذي لا يزال في سجنه : أرسل له وفداً من آل العباس ليسلموا عليه ويستشيروه ، والعجيب أن عبد الله بن عليّ قدم نصائحه لابن أخيه وهو في سجنه وما ذلك إلا تعصباً لبني العباس ضد آل عليّ ، فقد نصحه بأن يعسكر قريباً من الكوفة وبالتالي لا يسمح لأحد من أهلها بالتحرك أو محاولة المساعدة لهذه الحركة ، كما نصحه أن يكتب إلى مسلم بن قتيبة ليأتي إليه بجيشه وكان معسكراً بالري[2] وأن يخرج الأموال من الخزائن ويوزعها على الجنود .

لا يكتفي المنصور بنصيحة عمه بل يشاور جعفر بن حنظلة البهراني فيقول له : ظهر محمد فما عندك ؟

- وأين ظهر ؟

(١) الفخري / ١٦٦ . ودائماً يوجد الكثير من يتبرع لمثل هذه الأعمال والتي هدفها مادي محض .

(٢) مدينة مشهورة وهي مركز بلاد الجبال ، وتبعد عن قزوين سبعاً وعشرين فرسخاً ، ومن العلماء الذين ينتسبون إليها : أبو بكر الرازي وأبو حاتم الرازي المحدّث . انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ٣ / ١٢٠ .

- في المدينة .

- يا أمير المؤمنين ظهر حيث لا مال ولا رجال ولا سلاح ولا كراع[1]، وأشار عليه بإرسال فرقة من الجيش إلى وادي القرى[2] فيمنع مصادر المؤونة الآتية من الشام لأهل المدينة ، وبذلك يضيق عليهم الخناق الاقتصادي .

استشار محمد أصحابه فأشار عليه عبد الحميد بن جعفر بالخروج إلى مصر فيقابل المنصور بمثل سلاحه ورجاله وماله ، وهذا رأي سديد من هذا الفقيه ، ولكن محمداً يستمع إلى صوت العاطفة حين يقول له أحد أصحابه الآخرين حنين بن عبد الله : (أعوذ بالله أن تخرج من المدينة ، فإن رسول الله ﷺ قال : « **رأيتني في درع حصينة فأولتها المدينة** »)[3].

وهذا صوت العاطفة ومع ذلك فإن حنيناً لم يفهم حديث رسول الله ﷺ لأن هذا الكلام في غزوة أحد وما ينطبق يومها لا ينطبق الآن .

وتأتي مشورة أخرى لمحمد من رجل قد جرَّب الأمور وعلم الناس وهو أمير المدينة السابق محمد بن خالد القسري فقد طلب من محمد أن يذهب معه إلى بلد آخر وهناك يستطيع قتال المنصور بمائة ألف سيف

---

(١) الطبري : ٧ / ٥٧٨ .

(٢) واد شمالي المدينة على طريق الشام ، فيها قرى زراعية فتحها الرسول ﷺ سنة سبع (٧) من الهجرة . معجم البلدان ٤ / ٣٣٨ .

(٣) الطبري ٧ / ٥٨١ . مقاتل الطالبيين / ٢٦٨ .

لأن المدينة لو حوصرت من جهة واحدة لمات أهلها جوعاً وعطشاً ، ولكن محمد يرفض أيضاً هذا الاقتراح ، وكانت نتيجة هذا الرفض أن انضم هذا الأمير إلى جيش المنصور .

أرسل المنصور إلى محمد يعده ويمنِّيه إن تراجع عن ثورته ، ورد محمد عليه بالمثل حيث يعتبر نفسه أنه الخليفة الشرعي ومن ثم فهو يعرض على المنصور العفو إن هو لم يعارضه وبايعه ، وأوضح له في رسالته أن الحق هو لأولاد عليّ وليس للعباسيين[1]، ولم تستطع الرسائل أن تفعل شيئاً و لم يبق إلا المواجهة العسكرية .

جهز المنصور جيشاً قوامه أربعة آلاف مقاتل وعهد بقيادته إلى ابن أخيه وولي عهده عيسى بن موسى ، ويروى أنه عندما أسند له القيادة قال : (لا أبالي أيهما قتل صاحبه)[2] ذلك أن المنصور كان يمهد أن تكون ولاية العهد من بعده لابنه محمد ولقبه بالمهدي ولذلك لا يحزن كثيراً إذا قتل عيسى بن موسى حتى لا ينافس ابنه على ولاية العهد ، وهذا ليس بغريب على أبي جعفر وأمثاله الذين يضربون الناس بعضهم ببعض كي تبقى الساحة خالية لهم .

أرسل المنصور مع عيسى بن موسى محمد بن أبي العباس السفاح ، وكان أكثر الجيش من الخراسانيين الذين يدينون بالطاعة للعباسيين ولا يعرفون غيرهم ، ومن الجدير بالذكر أن المنصور أوصى عيسى أن يعامل أهل المدينة معاملة حسنة ، وطلب منه أن يدعو

---

(١) سنثبت إن شاء الله في ختام هذا البحث نص الرسالتين المتبادلتين بينهما .

(٢) الطبري : ٧ / ٥٧٧ .

محمداً أولاً إلى الطاعة فإن أجاب قبل منه[1]، وإن لم يجب قاتله ولا يؤذي أهل المدينة لأنهم الأهل والعشيرة وذرية المهاجرين والأنصار[2].

وهذه الوصية إن صحت تختلف تماماً عن وصية يزيد بن معاوية لقائده مسلم بن عقبة المري الذي أمره فيها أن يستبيح المدينة ثلاثة أيام إن تغلب عليهم ، ولا شك فإن المنصور يختلف تماماً عن يزيد فهو رجل مجرب عاقل وعنده دين ويعرف أقدار الناس ومن الملوك الحازمين الذين لا يستهترون بشعوبهم هذا مع شدة بطشه وظلمه إذا كان الأمر يمس كيان الدولة .

تحرك الجيش العباسي باتجاه المدينة حتى إذا وصل إلى فَيْد[3] أرسل الرسائل إلى زعماء المدينة يدعوهم إلى التخلي عن النفس الزكية ويعدهم بالمال الوفير إن هم تركوه ، وقد أثرت هذه الرسائل وهذه الوعود في نفوس البعض فتخلى عن النفس الزكية في أحرج اللحظات[4]، وهكذا يفعل المال فعل السحر في أناس

---

(١) لا أظن المنصور يرضى بأقل من القتل لمحمد أو من يفعل فعله من الخروج عليه .

(٢) الطبري : ٧ / ٥٧٨ .

(٣) مكان بنجد على طريق الحاج العراقي فيه سوق ونخيل ، انظر : وفاء الوفاء ٣ / ١١٠٢ .

(٤) الطبري : ٧ / ٥٧٩ .

لا تربطهم بحركتهم رابطة يشعرون معهم أنهم يدافعون عن الحق .

عرض عيسى بن موسى على أهل المدينة الأمان كما أوصاه المنصور ولكنهم رفضوا هذا الأمان وقالوا : (قد خلعنا أبا الدوانيق)[١] .

اقترب عيسى من المدينة واستشار محمد أصحابه فأشار عليه البعض بالخروج من المدينة ، ولكنه آثر البقاء فيها ، ويمكن تعليل ذلك بأن الخروج من مدينة عاش فيها أكثر حياته ويعرف أهلها ويعرفونه هذا يحتاج إلى قرار حاسم ، قرار صاحب معرفة بأصول القتال وأصول المجابهة ، ومن الصعب على محمد اتخاذ مثل هذا القرار[٢] .

بدأ محمد بتحصين المدينة واتخاذ موقف الدفاع ولذلك حفر خندقاً يحول بينه وبين الجيش العباسي ، والدفاع من وراء هذا الخندق ، واستبشر أصحابه خيراً عندما وجدوا وهم يحفرون الخندق آثار خندق رسول الله ﷺ الذي حفره في السنة الخامسة

---

(١) مقاتل الطالبيين / ٢٦٧ ، وأبو الدوانيق هو لقب المنصور لبخله .

(٢) لما عرض على عبد الله بن الزبير أن يخرج من مكة إلى الشام حتى تؤخذ له البيعة ويكون خليفة للمسلمين رفض هذا العرض، وكانت مغامرة تحتاج إلى قرار صعب ولكنها ربما كانت تنجح ولذلك قال عنه عبد الملك بن مروان : غرس ذنبه في الحرم .

للهجرة في غزوة الأحزاب[١]. وصل عيسى إلى المدينة وعسكر بجيشه في مكان يسمى الجرف[٢] ونزل قصر سليمان بن عبد الملك ، وذلك في صباح الثاني عشر من رمضان ، وأراد تأجيل القتال حتى ينتهي شهر رمضان ، ولكنه سمع أن محمداً يقول : (إن أهل خراسان معي وعلى بيعتي وكذلك حميد بن قحطبة من قواد جيش عيسى) فخاف عيسى من اتصالهم بمحمد إن هو تأخر في القتال فقرر عدم التأجيل وبدء المعركة[٣].

إن عدد جيش المدينة الذي يدافع عنها قليل بالقياس إلى الجيش العباسي ولكنهم عوضوا عن هذه القلة بالبطولة الفردية التي تقف أمام العشرات وتتغلب عليهم ، وفي اليوم الأول قاد المدافعين عن المدينة عيسى بن زيد بن عليّ[٤]، وقاتل هو بنفسه قتالاً شديداً استمر من الصباح حتى الظهيرة ، ووقعت جراحات كثيرة في صفوف أهل المدينة ، ويظهر أن فرقة الرمي بالنشاب في الجيش العباسي كانت تقوم بدورها على أحسن وجه .

---

(١) الطبري : ٧ / ٥٨٢ .

(٢) يبعد عن المدينة ثلاثة أميال على طريق الشام ، وفاء الوفاء ٤ / ١١٧٥ .

(٣) مقاتل الطالبيين / ٢٦٨ . وإذا صح هذا الخبر وهو أن محمداً كان يقول هذا الكلام حتى وصل إلى مسامع عيسى ، فهذا يدل على أنه لا يكتم سراً ويتكلم بكلام خطير أمام أي إنسان ، ولا يستبعد مثل هذا عليه لأنه لم يمارس هذه الأمور العملية ، وطبيعة تربيته تجعله يظن بكل الناس خيراً .

(٤) والده زيد بن علي الذي خرج على الأمويين في عهد هشام بن عبد الملك .

شعر عبد الله بن جعفر بن المسور أن الأمور لا تسير كما يجب فاقترح على محمد أن يذهب إلى مكة لعله يجد مخرجاً وفسحة ليعيد تنظيم أموره ولا يمكن العباسيين من نفسه .

رفض محمد هذا الاقتراح وتذكر ما فعل يزيد بأهل المدينة وخشي أن تكرر نفس الحادثة ، فكيف يتركها نهباً للجيش العباسي ، وكيف يترك أهلها في وقت الضيق .

وفي اليوم الثاني اشترك محمد في القتال وكان في مقدمة الصفوف ، وهو مشهور بالشجاعة ويشبهونه بحمزة بن عبد المطلب ، ويصفه من رآه بأنه كان يفري الناس فرياً وقد قتل بيده يومها سبعين رجلاً[1] .

حمل راية محمد عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير وكان شعاره أحد أحد ، وهو شعار الرسول ﷺ يوم حنين .

أحاط جيش العباسيين بالمدينة وتمركز قائده عيسى بن موسى في مكان يسمى ثنية الوداع[2]، ولا شك أن القوة كانت غير متكافئة ، كانت بين ثوار غير مدربين ولا منظمين ، وبين جيش منظم مارس القتال ، وهذا عدا الفرق في العدد ، ولم يبق مع محمد إلا المئات[3]، ومن الواضح أن العملية أصبحت انتحارية ، وفي هذه الحالة يبدأ بعض الناس بالتسلل لواذاً كما وقع لمسلم بن عقيل حين تخلى عنه أهل الكوفة ومع زيد بن عليّ حين فوجىء بأن الناس تركوه وبقي في فئة قليلة

---

(١) الطبري : ٧ / ٥٨٦ .
(٢) تقع شمالي المدينة أول الطريق باتجاه الشام وهي اليوم داخل المدينة .
(٣) قدر عددهم بعدد أهل بدر ، يعني ثلاثمائة رجل تقريباً .

جداً ، فليس غريباً أن يتخلى أكثر الناس عن هؤلاء الثائرين حين يرون قوة الدولة وإغراءاتها ، ويعتقدون أنه لا مجال للنجاح ويكون الحماس العاطفي في أول الأمر ولكن الطالبيين لم يعتبروا .

كان مع محمد رجال أشداء ، أبطال متحمسون للدفاع عما يعتقدون أنه الحق فهذا أبو القلمس العمري يبارز ثلاثة من جيش عيسى فيقتلهم وفيهم أشدهم واسمه هزارمرد ، ولما ضربه أبو القلمس قال : خذها وأنا ابن الفاروق – من أحفاد عمر بن الخطاب – فقال رجل جاهل من أصحاب عيسى : قتلت خيراً من ألف فاروق[1].

استطاع الجيش العباسي اقتحام الخندق حين ملأوه بما يحملون معهم من متاع ومراكب الإبل واستطاعت الخيل أن تجتازه ، وبدأ الخوف يدب فى أهل المدينة ، فانصرف محمد إلى دار مروان فاغتسل وتحنط ثم خرج ومعه ابن خضير واسمه إبراهيم بن مصعب بن الزبير ، وهذا الأخير يناشد محمداً أن يترك المدينة ويذهب إلى البصرة ، وهناك أخوه إبراهيم ويستطيع جمع الناس حوله مرة ثانية ، ولكن محمداً يرفض هذا الاقتراح رفضاً قاطعاً كما رفض الاقتراح الأول بذهابه إلى مكة ، وكأن محمداً كان يعرف مصيره ولكنه يريد أن تكتمل المأساة كما اكتملت في كربلاء ، وكأن نفسه تؤرقه وتؤنبه على توريط الناس بدون

---

(١) الطبري : ٧ / ٥٨٩ ، وهذا يؤيد ما قلناه من أن هؤلاء الحكام يرسلون جنوداً لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً وأكبر همّهم طاعة الأوامر ولو كانت مخالفة للشرع .

إعداد قوي ، فكيف يورط الناس في البصرة مرة ثانية ، ويقول لابن خضير : (لا تبتلون بي مرتين)[1]، فهو يعتبر نفسه أنه قد سبب بلاءاً لأهل المدينة ، ويلتفت إلى ابن خضير ويطلب منه الذهاب حيث شاء وهو في حل من مساعدته في هذه الشدة ، ولكن النفوس الشريفة لا تستطيع أن تتخلى عن أصدقائها في اللحظات الحرجة ولو كان ذلك يكلفها الموت فيقول له ابن خضير : (وأنّى المذهب عنك)[2].

وهذا ما حصل مع الحسين بن علي حين طلب من الذين حوله أن يتركوه وحده يواجه الجيش العراقي ولكنهم رفضوا .

استأذن ابن خضير ودخل المدينة واتجه مباشرة إلى السجن فأخرج أمير المدينة السابق رياح بن عثمان وأخاه عباس وذبحهما وأحرق الديوان الذي فيه ذكر أسماء أصحاب محمد ثم رجع وقاتل مع محمد حتى قتل ، وكان الخراسانيون إذا رأوه ابتعدوا عنه وتفرقوا[3].

ومن الذين صمدوا وصبروا مع محمد قوم من قبيلة جهينة يقال لهم : « بنو شجاع » كسروا أغماد أسيافهم وقاتلوا حتى قتل أكثرهم ، وفتح بنو غفار طريقاً للجيش العباسي فأتوا محمداً من

---

(١) الكامل لابن الأثير : ٥ / ١٠.
(٢) الطبري : ٧ / ٥٩٤ .
(٣) الطبري ٧ / ٥٩٤ .

الخلف[1] .

أراد محمداً مبارزة حميد بن قحطبة من قواد الجيش العباسي فرفض هذا الأخير وكأن محمداً أراد نهاية المعركة إما بقتل أكبر قواد الجيش المعادي أو مقتله هو .

أحاط جنود عيسى بمحمد وتكاثروا عليه وبقي هو في قلة قليلة واستطاعوا أخيراً الوصول إليه وقتله رحمه الله ، ودُفن في البقيع دفنته أخته وابنته . وبمقتله انتهت مقاومة أهل المدينة وانتهت حركة النفس الزكية ولكنها لم تنته بعد في البصرة .

دخل عيسى المدينة منتصراً فأعطى الأمان للناس ، وعسكر خارجها وكان يتردد على المسجد النبوي للصلاة فيه ، وانتقم من أصحاب محمد الذين لا يزالون على قيد الحياة ، وإنها لخسارة كبيرة أن يقتل أبطال مثل ابن خضير ، ولو سخرت هذه الإمكانات للجهاد في سبيل الله وتحرير الأرض من الظلم والكفر لكان أجدى بكثير .

إن البطولات التي ظهرت هنا وفي حصار الكعبة هي بطولات عجيبة ومع الأسف حصلت بين المسلمين أنفسهم مع اجتهاد أصحابها أنهم على الحق .

رثي محمد بقصائد كثيرة ومنها قصيدة لعبد الله بن مصعب بن

---

(١) الطبري ٧ / ٥٩٣ .

ثابت الزبيري يقول فيها :

هلا على المهديّ وابني مصعب　　أذريت دمعك ساكباً تهتانا
ولفقد إبراهيم حين تصدعت　　عنه الجموع فواجه الأقرانا

ويقول أيضاً :

يا صاحبي دعا الملامة واعلما　　أن لست في هذا بألوم منكما
وقفا بقبر ابن النبي مسلما　　لا بأس إن تقفا به فتسلما
قبر تضمن خير أهل زمانه　　حسباً وطيب سجية وتكرما
أضحى بنو حسن أبيح حريمهم　　فينا وأصبح منهبهم متقسما[1]

هذا وقد بلغت المدة التي سيطر فيها محمد على المدينة شهرين وسبعة عشر يوماً[2].

* * *

(١) الطبري ٧ / ٦٠٢ .

(٢) الطبري ٧ / ٦٠٩ .



المبحث الرابع

المدينة بعد هذه الحركة

بعد مقتل النفس الزكية ومقتل أمير المدينة رياح بن عثمان المري تولى إمرتها كثير بن حصين ، وكان الذي ولاه إياها عيسى ابن موسى قائد الجيش المنتصر . ثم عزله المنصور وولّى مكانه عبد الله بن الربيع الحارثي وفي عهده حصلت فتنة بين جنود الدولة والشعب الذي تأذى منهم وخاصة أهل الأسواق ، فعزل وولى مكانه جعفر بن سليمان بن علي العباسي ، وبقيت المدينة هادئة إلى زمن الخليفة موسى الهادي بن محمد المهدي حيث تحرك الطالبيون مرة أخرى بقيادة الحسين بن علي بن الحسن[1]، ولكنها كانت حركة ضعيفة وجاءت بصورة عفوية ولم تطل مدته في المدينة سوى أحد عشر يوماً انتقل بعدها إلى مكة فالتقى مع العباسيين القادمين إلى الحج فهُزم في معركة « فخ »[2]، وقتل

(١) والده علي بن الحسن ممن كانوا في سجن المنصور مع أعمامه عبد الله والحسن .

(٢) يبعد أميالاً عن مكة وهو المسمى اليوم « الزاهر » .

وتشرد من معه وهرب من المعركة إدريس بن عبد الله وأخوه يحيى .

لم يكن سلوك الحسين بن علي بالسلوك المرضي عنه عند أهل المدينة ولذلك لم يتجاوبوا معه بل طردوه وشتموه ؛ وبعد هذه الحركة هدأت المدينة تماماً بل أصبح الأعراب المجاورين يتغلبون عليها حتى اضطر الخليفة المأمون والمعتصم إلى إرسال القائد بغا الكبير لحفظ الأمن فيها ، وبعد ضعف الدولة العباسية نفسها بعد الخليفة المتوكل تحولت المدينة إلى الاهتمام بمواسم الحج والزيارة وغلب عليها الطابع المادي ولم تعد لها هذه الاهتمامات الفكرية والسياسية .

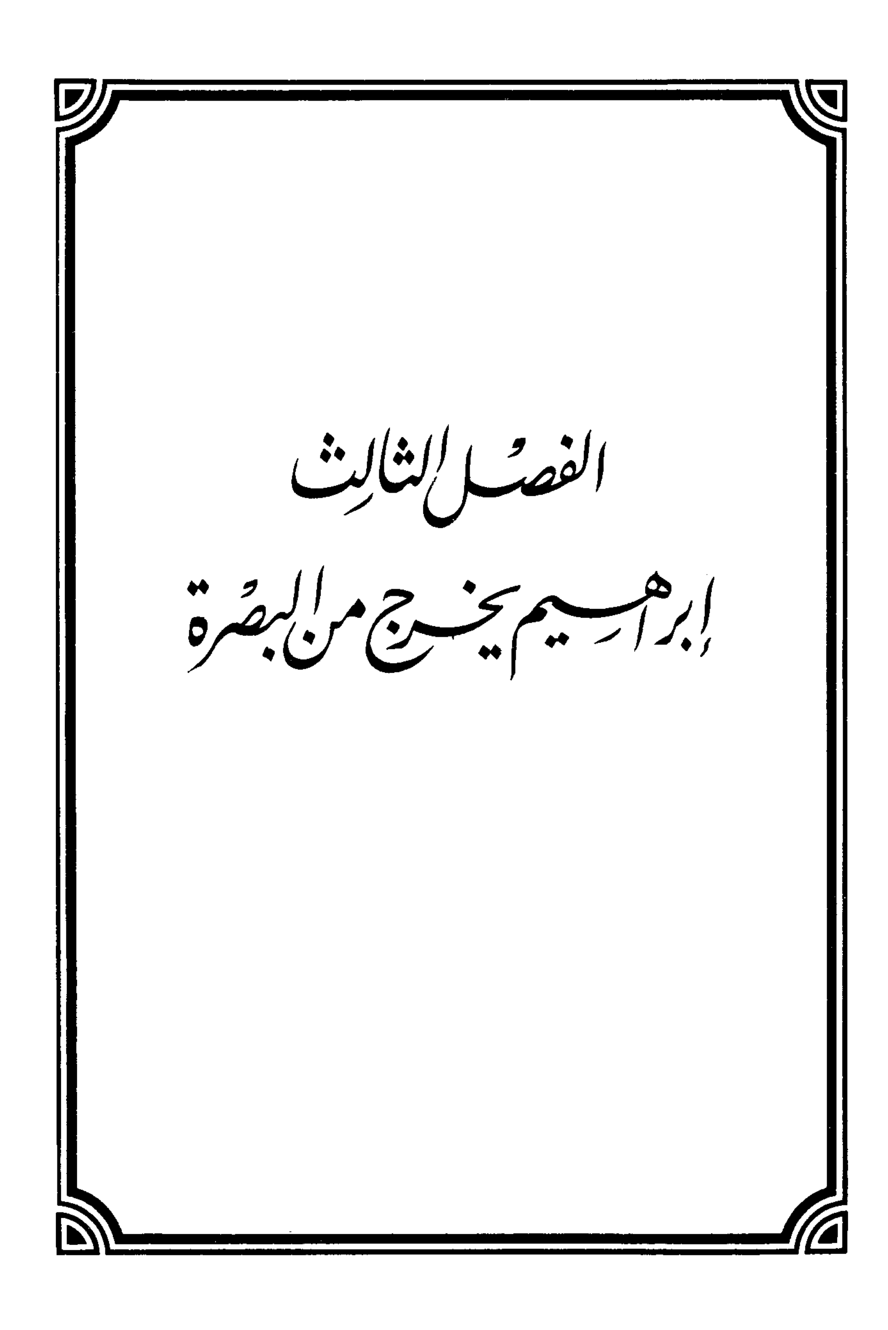
تأثرت المدينة بعد فشل هذه الحركة اقتصادياً فقد ضيق المنصور عليهم أقواتهم التي تأتي من جهة ميناء ينبع وكذلك التي تأتي من جهة الشام ، كما صادر أراضي لجعفر الصادق وغيره ثم عفا عنهم ، ولكن لم تعد لها بحبوبة العيش وتتنفس الصعداء إلا بعد وفاة المنصور وتولي ابنه محمد المهدي الخلافة فخفف عنهم كثيراً من الأعباء السابقة ، بل وسع عليهم وأكثر من توزيع الأموال فيهم ، وقام بإصلاح المسجد النبوي وتوسعته .

لم تؤثر الحركة على الناحية العلمية كثيراً ، فلم يقتل من العلماء أحد ولكن ضرب الإمام مالك بن أنس رحمه الله لفتواه

الشهيرة في قضية « طلاق المكره » ولكن هذا لم يؤثر في استمراره ببث العلم وكثرة التلاميذ حيث نشأت مدرسة متميزة في الحديث والفقه ، وانتشرت بعدئذ في الآفاق ، وبقي للمدينة هذا الزخم العلمي إلى فترة غير قصيرة ، ففيها الصادق والكاظم من علماء آل البيت، وفيها تلاميذ الإمام مالك وفيها نشأ ابن إسحاق ومن بعده الواقدي الذين كتبوا في المغازي ، وما زال للأدب والشعر شأن إلى أن ضعفت سياسياً واقتصادياً كما ضعفت الدولة العباسية نفسها وانتقلت مراكز الفكر والسياسة إلى دول ومدن ناشئة جديدة .







الفصل الثالث

إبراهيم يخرج من البصرة



المبحث الأول

العلماء يؤيدون إبراهيم

يتصف إبراهيم بن عبد الله بصفات أخيه محمد ، ديناً وعلماً وشجاعة ولذلك اجتمع عليه أهل البصرة وبايعوا النفس الزكية على يديه ، وبعد تنقل وتشريد من مدينة إلى مدينة استقر إبراهيم أخيراً بالبصرة[1] وقد أصابه من أثناء تخفيه من شدة الضيق والبلاء حتى أنه يضطر وهو في الموصل أن يجلس للأكل على موائد أبي جعفر المنصور الذي يطلبه .

كان أول عمل قام به إبراهيم في البصرة هو أخذ البيعة لأخيه وسجَّل كثير من الناس أسماءهم في عداد المبايعين له وأنهم

---

(١) دخل البصرة بحيلة طريفة قام بها أحد أنصاره (سفيان بن حيان بن موسى) فقد طلب سفيان من المنصور الخليفة إرسال جنود معه وهو يدله على مكان إبراهيم ، وفعلاً أرسل المنصور معه ما يريد من الجنود والخيل وتظاهر إبراهيم بأنه خادم عند سفيان ، ولبس ما يناسب ذلك ، ثم سارا مع الجنود حتى دخل البصرة ، فكان سفيان يقول للعشرة من الجنود انتظروني هنا حتى آتيكم به ويخرج من الباب الآخر حتى فرقهم وأخفى إبراهيم . (انظر : الطبري ٧ / ٦٢٥) .

ينصرونه إذا خرج حتى وصل العدد إلى أربعة آلاف[1]، وقد بايعه شجعان العرب مثل المغيرة بن الفزع ، وشجعه وأيده كثير من العلماء وفي مقدمتهم الإمام أبو حنفية[2] الذي أفتى الناس بالخروج معه[3] وتبرع بالمال الكثير لهذه الحركة ، ولما سئل عن سبب عدم خروجه بنفسه قال : كانت عندي ودائع للناس[4].

ومن العلماء المشهورين أيضاً الذين أيدوا إبراهيم : شعبة بن الحجاج[5]، وهشيم بن بشير وكان شجاعاً نبيلاً[6]، وعباد بن العوام[7]، وعبد الواحد بن زياد وهو أول من أتى بأموال لإبراهيم .

---

(١) مقاتل الطالبيين / ٣١٨ .

(٢) هو النعمان بن ثابت مولى لبني تيم الله بن ثعلبة ، فقيه العراق وأحد أئمة الإسلام ، طلب من قبل بني أمية ليكون قاضياً فرفض وكذلك من قبل العباسيين فرفض رفضاً شديداً . توفي سنة ١٥٠ هـ (انظر : البداية والنهاية ١٠ / ١٠٧) .

(٣) جاء إليه إخوة الذين خرجوا مع إبراهيم فقال له : أنت أفتيت بالخروج مع إبراهيم ؟ قال أبو حنيفة : نعم ؛ فقال له : لا جزاك الله خيراً . قال أبو حنيفة : هذا رأي . انظر : تاريخ بغداد ١٣ / ٣٨٥ .

(٤) مقاتل الطالبيين / ٣٦٥ .

(٥) المصدر السابق ، ولم أشاهد في كتب التراجم ذكراً عن تأييد شعبة .

(٦) ابن سعد : الطبقات ٧ / ٣١٣ .

(٧) من أهل واسط ، وعنده ميل وحب لآل أبي طالب ، أخذه هارون الرشيد فحبسه زماناً ثم تركه وكان ثقة (انظر : تذكرة الحفاظ للذهبي ١ / ٢٦٢)

وعندما ذكر ابن الأثير تأييد العلماء لإبراهيم ذكر عيسى بن يونس بن أبي إسحاق ، ومعاذ بن معاذ ، وعباد بن العوام قال : (وجماعة كثيرة من الفقهاء وأهل العلم)[1]، وقد خرج معه أصحاب زيد بن عليّ وعلى رأسهم ابنه عيسى بن زيد وقد قاتل ببسالة مشهودة .

إن تأييد العلماء لإبراهيم واضح هنا أكثر من تأييد علماء المدينة لأخيه محمد ، وربما كان لطبيعة البيئة التي لا ترضى عن أي حاكم بسهولة أثر في ذلك ، ولم يشارك العلماء هنا بهذه الكثرة إلا لرغبتهم في رؤية حاكم أفضل من الحكام السابقين في دينه وعدله . وقد خرج أمثالهم في حركة عبد الرحمن بن الأشعث التي تكلمنا عنها سابقاً وذلك لما رأوا من ظلم الحجاج وبغيه وظنوا أن حركتهم ستنجح وينزاح عنهم هذا الكابوس ، فكان من المشتركين أمثال سعيد بن جبير وعامر الشعبي . وكان إبراهيم ومحمد فيهم من الصفات ما جعل هؤلاء العلماء يأملون فيهم خيراً ، ولكن الصفات الحميدة شيء وفن القيادة شيء آخر .

إن اختيار إبراهيم للبصرة كان نتيجة الظروف السياسية ، فالكوفة وإن كانت أكثر تشيعاً لإبراهيم ولكن الخليفة المنصور أحاط بجنوده وضرب معسكره بجانبها وبذلك أفقدها القدرة على

---

(١) الكامل ٥ / ١٦ .

الحركة ، وهذه من نصائح عمه عبد الله بن عليّ . وأما أهل الشام فميولهم السياسية مع بني أمية والأوضاع عندهم مستقرة فلا يريدون إقحام أنفسهم بحركات لا يدرى مصيرها ، وخراسان موطن الدعوة العباسية وقد ارتبطت بهم ارتباطاً وثيقاً ، لهذه الأسباب توقع أهل الخبرة والحنكة من الرجال الذين استشارهم المنصور ، توقعوا خروج إبراهيم في البصرة ، وهذه نصيحة جعفر ابن حنظلة البهراني ، ولما خرج إبراهيم في البصرة سأله المنصور : كيف عرفت أن البصرة هي موطن خروج إبراهيم قال : (لأن محمد خرج بالمدينة وليسوا بأهل حرب وغايتهم أن يقيموا شأن أنفسهم ، وأما أهل الكوفة فلا يستطيعون الحراك لأنك بجوارهم ، وأهل الشام أعداء آل أبي طالب ، فلم يبق إلا البصرة)[١].



(١) الكامل لابن الأثير ٥ / ٥ .

المبحث الثاني

قيادة بلا خبرة عسكرية

فوجيء إبراهيم بكتاب من أخيه محمد يذكر له فيه أنه أعلن الحركة في المدينة ويدعوه إلى إعلانها في البصرة ، ولم يعجب إبراهيم بهذه المفاجأة وتضايق جداً ، لأنه لم يأخذ الاستعداد الكافي وسيضطر إلى الإعلان قبل الأوان المطلوب ، وقد حاول أحد أنصاره عفو الله بن سفيان التخفيف عنه فشجعه وذكر له أن معه رجالاً لهم وزنهم في البصرة مثل المضاء بن القاسم الجزري ، وغيلة ، والطهوي ، والمغيرة فاطمأن إبراهيم[1].

اتخذ المنصور للأمر عدته فنزل الرصافة قريباً من الكوفة ، وترك بناء بغداد الذي بدأ فيه عند قيام الحركة ، ونصحه أحد المقربين منه أن ينزل قريباً من الكوفة لأنها كما وصفها : (قدر تغلي وأبو جعفر هو طبقها)[2]، وقد واجه المنصور مشكلة أخرى وهي قلة عدد الجنود الذين معه بسبب تفرق الجيش في

---

(١) الطبري ٧ / ٦٢٨ .

(٢) الطبري ٧ / ٦٣٠ .

أماكن أخرى من الدولة . فلم يبق معه سوى ألف وخمسمائة جندي ، فقسمهم ثلاثة أقسام وحاصر الكوفة من جميع جوانبها ، ومع ذلك استطاع بعض سكانها التسلل خفية والانضمام إلى إبراهيم في البصرة كما تسلل أناس من الموصل ووصلوا البصرة وقد قبض المنصور على أفراد منهم وقتلهم[1]. كما انضم إلى إبراهيم رجال من فارس من أصحاب القرى والضياع وأتوا معهم بأموال كثيرة وضعوها تحت تصرف إبراهيم فصرفها إعانة للفقراء من الذين انضموا إليه .

حدَّد إبراهيم موعداً لبدء حركته في البصرة وهو أول شهر رمضان المبارك سنة ١٤٥ هـ (خرج أخوه محمد في جمادي الآخرة) ، وفي بداية الزحف اصطحب معه أربعة عشر فارساً وقصد دار الإمارة ، وكان والي البصرة سفيان بن معاوية يعلم بتحركات إبراهيم ولكنه ساكت عنها ويتظاهر بعدم علمها ، وقد جاءه مساعدة من الخليفة فلما علم بموعد خروج إبراهيم حبس قواد الجيش عنده .

جاء إبراهيم وأحاط بقصر الإمارة وطلب سفيان منه أن يؤمنه على نفسه فاستجاب له وحبسه ظاهرياً حتى لا يظن المنصور بسفيان شيئاً . دخل إبراهيم قصر الإمارة وغنم ما فيه من أموال وأسلحة تقوى بها في حركته .

---

(١) الطبري ٧ / ٦٣٢ .

سمع محمد وجعفر ابنا سليمان بن علي العباسي ما حدث بدار الإمارة فاستعدا للمجابهة والقتال وجاءا بأنصارهما وجنودهما ويقدرون بستمائة رجل ، فتصدى لهم المضاء بن القاسم الجزري وهو من قواد إبراهيم واستطاع أن ينزل الهزيمة بهما ولم يكن معه سوى ثمانية عشر فارساً وثلاثين من المشاة ، وهذا يذكرنا برجال محمد النفس الزكية الذين أبدوا ضروباً من الشجاعة الفائقة .

سيطر إبراهيم على البصرة ووجد في بيت مالها مليوني درهم فقسمه على جيشه وأعطى كل رجل منهم خمسين درهماً . ثم بدأ بترتيب أموره الإدارية فأرسل الأمراء على الأقاليم المجاورة : بعث المغيرة بن الفزع إلى الأهواز فاستولى عليها وأخذها من أميرها السابق محمد بن الحصين العبيدي . ومع المغيرة مائتي رجل ومع ابن الحصين أربعة آلاف رجل كما يقال . وبعث عمرو بن شداد إلى فارس فأخذها من أميرها إسماعيل بن عليّ العباسي . وبعث مروان بن سعيد العجلي إلى واسط فأخذها ودخلت في طاعة إبراهيم[1] .

بعد هذه الانتصارات وهذا التأييد الشعبي في البصرة ورد إلى إبراهيم خبر مقتل أخيه محمد بالمدينة وكان وصول هذا الخبر قبل عيد الفطر بثلاثة أيام[2] .

---

(١) الكامل ٥ / ١٧ .

(٢) الكامل ٥ / ١٧ .

صلى إبراهيم العيد وخطب في الناس وأخبرهم بمقتل محمد ورثاه بهذه الأبيات :

أبا المنازل يا خير الفوارس من ... يفجع مثلك في الدنيا فقد فجعا
الله يعلم أني لو خشيتهم ... وأوجس القلب من خوف لهم فزعا
لم يقتلوه ، و لم أسلم أخي لهم ... حتى نموت جميعاً أو نعيش معا[1]

ثم تابع إبراهيم يذكر أخاه بقوله : (اللهم إنك تعلم أن محمداً إنما خرج غضباً لك وإيثاراً لحقك فارحمه واغفر له)[2] بكى إبراهيم بعد هذا الرثاء لأخيه ، ولاحظ الناس الحزن والانكسار على وجهه ولكن أنصاره تحمسوا أكثر وزاد مقتل محمد من كراهيتهم للمنصور .

عسكر المنصور بقرب الكوفة و لم يكن معه سوى ألفين من الجنود ، ولكنه كان حازماً مدبراً لأموره الدنيوية وقد واجه الموقف بأعصاب هادئة .

وفي معسكره جلس في المصلى الذي يصلى فيه خمسين ليلة لا يتركه و لم يغير ثيابه و لم يلتفت إلى نساء أو غير ذلك من أمور الرفاهية ، بل هو جاد في تدبير كيفية مواجهة إبراهيم ، وكان العمود الفقري للجيش العباسي بعيداً عن العاصمة تحت إمرة خازم بن خزيمة ،

---

(١) مقاتل الطالبيين / ٣٤٢ .

(٢) المصدر السابق / ٣٤٣ .

فوجه إليه المنصور أن يعود ويسترجع إقليم الأهواز وفعلاً استطاع خازم استرداد الإقليم من المغيرة بن الفزع أميرها من قبل إبراهيم ، ورجع المغيرة إلى البصرة وكانت هذه أول نكسة لإبراهيم ، كما أرسل المنصور إلى عيسى بن موسى بالمدينة أن يرجع لمواجهة إبراهيم ، وجيش عيسى هو الذي هزم محمد النفس الزكية .

زحف إبراهيم نحو الكوفة وقصده الخليفة المنصور ، وكان على ميمنة جيشه عيسى بن زيد بن عليّ وعلى الميسرة برد بن لبيد اليشكري و لم ينقص هذا الجيش العدد أو الروح المعنوية العالية بين أفراده ولا ينقصه الشجاعة أو الخبرة العسكرية ولكن المشكلة تكمن في اختلافهم على خطة القتال ، ومع أن إبراهيم قليل الخبرة في النواحي العسكرية[1] ، كما ظهر بعدئذ في قتاله مع المنصور ، مع ذلك فإنه لا يستجيب لنصائح رجاله الذين لهم دراية في هذه النواحي ، فقد طلبوا منه البقاء في البصرة وإرسال الجيوش فإن انهزم جيش أرسل آخر فلم يستجب لأن البعض أطمعوه بأن أهل الكوفة إذا رأوه انضموا كلهم إليه ، قدمت له مشورة أخرى وهي أن يسلك طريقاً غير الطريق الذي يتوقعه المنصور فتكون مفاجأة له وتكون من أسباب النصر فرفض ، ثم جاءه من يقول له : دعنا نهاجم أصحاب عيسى بن موسى ليلاً ، فرفض أيضاً

---

(١) ذكر ذلك عنه الإمام الذهبي في العبر ١ / ١٩٩ .

وعلل ذلك بأنه لا يحب مباغتة العدو ليلاً[1]، وكأنه يعتبرها نوعاً من الغدر وهذا يكرهه وليس من طبعه .

طلب أحد أنصاره منه أن يسمح له بالذهاب للكوفة فيدعو أهلها للانضمام للحركة فلم يقبل طلب هذا لأن البعض الآخر من أهل مشورته قالوا : نخشى أن يستجيب البعض ويرفض البعض فيقعون تحت عقوبة أبي جعفر القاسية ، وإبراهيم يميل إلى هذا الرأي لأنه أقرب إلى طبيعة الرحمة والشفقة على الناس .

علق المؤرخ الذهبي على تردد إبراهيم وعدم اتخاذه المواقف الحازمة بقوله : (ولو هجم بالكوفة لظفر بالمنصور ولكنه كان فيه دين وخاف أن يُستباح الصغير والكبير)[2].

تابع إبراهيم زحفه نحو الكوفة ولم يستجب لنصائح أصحابه حتى أن أحد المقربين منه وهو عبد الواحد بن زياد بلغ به الغضب من تردد إبراهيم وعدم وضع خطة حربية محكمة بلغ به التفكير في الرجوع وترك إبراهيم لولا الخوف من أن يقال : شجَّعَه وخرج معه ثم تركه .

---

(١) الطبري ٧ / ٦٤٣ .

(٢) الذهبي العبر ١ / ٢٠٠ ويذكر صاحب مقاتل الطالبيين أن الذين كانوا يردونه عن الاستماع إلى آراء هؤلاء النصحة هم الزيدية فيقولون مثلاً: إن المباغتة مثل السرقة . مقاتل الطالبيين / ٣٤٤ .

وصل إبراهيم إلى قرية « باخمرا »[1]، ولما رأى بعض القواد أن الأرض مكشوفة طلب من إبراهيم حفر خندق يقاتلون من ورائه ولكن العقلية السطحية المتهورة التي تظن أن القتال هو الهجوم صفاً واحداً فإما النصر وإما الهزيمة ، هذه العقلية رفضت فكرة الخندق ، وقالت لإبراهيم : (كيف تجعل بينك وبين الله جُنَّة) وهي عقلية المتدينين من الزيدية .

وكانت آخر النصائح العسكرية هي تقسيم الجيش إلى كتائب ، فإذا هزمت كتيبة ثبتت أخرى ، فرفض آخرون هذا الرأي وأبوا إلا أن يصفوا صفَّ الإسلام ، ويقصدون قول الله تعالى : ﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص** ﴾[2]، ويبدو أن هذا الرفض جاء من قبل الزيدية أيضاً لأن الذين شاركوا في هذه الحركة نظرتهم سطحية جداً ، فيظنون أنهم إذا خندقوا فقد جعلوا بينهم وبين الجنة ستاراً وحجاباً ، وفسروا الآية تفسيراً ظاهرياً وهو (الصف) بالمعنى الحسي ، بينما المقصود هو أن يكون المسلمون على قلب واحد كأنهم بنيان مرصوص[3].

---

(١) قرية على بعد ستة عشر فرسخاً من الكوفة . الكامل ٥ / ١٩ .

(٢) سورة الصف / ٤ .

(٣) قال الشيخ القاسمي في : « محاسن التأويل » في تفسيره لهذه الآية بعد أن ذكر قول من قال : إنه الصف بالمعنى الحسي :
(وفي التشبيه وجهان آخران :
١ – أن يكون المراد الثبات ورسوخ الأقدام .

وصل إبراهيم إلى « باخمرا » وهناك التقى مع الجيش العباسي الذي يقوده عيسى بن موسى ، ومع أن إبراهيم لم ينفذ أي خطط سابقة عرضت عليه إلا أن حماس جنوده جعل النصر حليفه في

---

٢ - أن يكون المعني به اجتماع الكلمة حتى يكونوا في الاتحاد كالبنيان المرصوص .
وهذان الوجهان أقرب من الأول) .

وفي تفسير « أضواء البيان » ج ٨ ص ١٧٥ : (إن المقصود هو القوة والوحدة ، وآية آل عمران تدل على ذلك : ﴿ **وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم** ﴾ فهذا من التعبئة حسب الظروف المناسبة . ا هـ .

ولا بد هنا من القول أن هؤلاء المتدينين الذين لا يملكون رصيداً من الخبرة العسكرية أو السياسية ويتدخلون في كل شيء ظانين أنهم ما داموا متدينين أو أن عندهم علماً بالفقه أو اللغة العربية فمعنى هذا أن لهم الحق في إبداء الرأي في كل شيء ، ناسين أو متناسين أن الرسول ﷺ كان يضع الرجل المناسب في المكان المناسب وأنه وصف خالد بن الوليد بسيف الله وقد خاض معركة واحدة فقط ، ولكنه ﷺ كان يعلم مواهب خالد ، وناسين أن الصحابة وإن لم يتدربوا في كلية عسكرية فقد كانوا عسكريين بطبيعتهم لأن البيئة العربية كانت تتطلب ذلك ، وقد خاضوا المعارك مع رسول الله ﷺ وكل معركة كان لها (تكتيكها) الخاص بها ، من بدر إلى أحد إلى الخندق كما تدربوا في مدرسته السياسية فكانوا يرون ويشاهدون معاهداته وصلحه مع الأعداء والأصدقاء ورسائله إلى الملوك والأمراء ولذلك كان عمر بن الخطاب في خلافته يختار رجلاً مثل النعمان بن مقرن المزني فيقود الجيش الإسلامي في معركة (نهاوند) وليس له سابقة في الجيوش وينتصر

أول المعركة ، وهزم الجيش العباسي وهرب أحد قواده المشهورين وهو حميد بن قحطبة وقد حاول القائد العام أن يثنيه عن عزمه في الهرب فلم يرد عليه فيذكره بالطاعة فيقول له : (لا طاعة في الهزيمة)[1] ولكن عيسى يثبت مع قلة قليلة من جنوده وفي غمرة النصر وهزيمة جيش عيسى ينادي منادي إبراهيم أن لا تتبعوا هارباً ولا تجهزوا على جريح وهذه قاعدة معروفة عند القتال بين المسلمين أراد إبراهيم تطبيقها لأنه لا يقاتل كفاراً حتى يستأصلهم ويسبي نساءهم ، ويسمع جيش إبراهيم هذا النداء فيرجعون ويتركون ملاحقة الفارين عندئذ انقلبت موازين القوى ويظن أصحاب عيسى أن جيش إبراهيم رجع مهزوماً فتحمسوا واشتدوا في القتال وبدأت الكفة ترجح لصالحهم .

وكان المنصور قد سمع بأخبار الهزيمة فأمر بإعداد الإبل والدواب على جميع أبواب الكوفة استعداداً للهرب ، ولكن الحقيقة انكشفت بعدئذ وهو أن جيش عيسى هو الذي انتصر

على الفرس ، ويأتي هؤلاء الذين لم يعيشوا هذه الأجواء بل عاشوا بين الكتب والروايات ليظنوا بأنفسهم أن لهم الحق بالتدخل في كل شيء ، وإذا كانت نواياهم طيبة ولكن كان عليهم أن يعرفوا قدر أنفسهم ، ويأتي المعاصرون أمثالهم ليتدخلوا في كل شيء : في السياسة ، وفي الإعلام ، وفي الأمور العسكرية البحتة وهم لا يفقهون شيئاً منها ، ويطلقون التصريحات الكاذبة ليخيفوا - برأيهم - الأعداء ، يتصدون لهذا لمجرد أنهم (مشايخ) لهم تلامذة في المسجد الفلاني .

(١) الطبري ٧ / ٦٤٥ .

وفي نهاية المعركة قتل إبراهيم رحمه الله بعد أن جاءه سهم في عنقه فنحره ، فنزل عن فرسه وهو يقول : ﴿ **وكان أمر الله قدراً مقدوراً** ﴾ وكان يلبس درعين فتضايق منهما وحل عن رقبته فجاءه هذا السهم ، وأحاط به أصحابه يقاتلون عنده وهم يقولون : (أردنا أن نجعلك ملكاً فأبى الله إلا أن يجعلك شهيداً)[1].

وصل خبر مقتل إبراهيم إلى المنصور فتمثَّل هذا البيت :

فألقت عصاها واستقر بها النوى   كما قر عينا بالإياب المسافر[2].

استمرت حركة إبراهيم نحو ثلاثة أشهر وانتهت بمقتله لأنها حركة مرتبطة بشخصه ، ولذلك تفرق عنه أصحابه بعد الهزيمة فمنهم من هرب ومنهم من اختبأ بالبصرة ، واستطاع المنصور الإمساك ببعضهم وإنزال أشد العقوبات بهم ، بل أراد استغلال هذا النصر ، حتى يدخل الرعب على من لم يشترك في هذه الحركة ، فلا يفكر أحد بعدها ويمني نفسه بالثورة على الدولة . فقد تم استدعاء زعماء آل البيت المستقرين في المدينة جعفر الصادق والحسن بن زيد ، والمنصور كعادته يجبه الخصوم بالكلام القاسي حتى يرعبه ثم قد يعفو عنه ، فقال لجعفر : أتدرون لما دعوتكم ؟ دعوتكم لأروع قلوبكم وأعقر نخلكم وأترككم بالسراة ، فقال جعفر : (إن سليمان أُعِطَي

---

(١) مقاتل الطالبيين / ٣٤٧ .

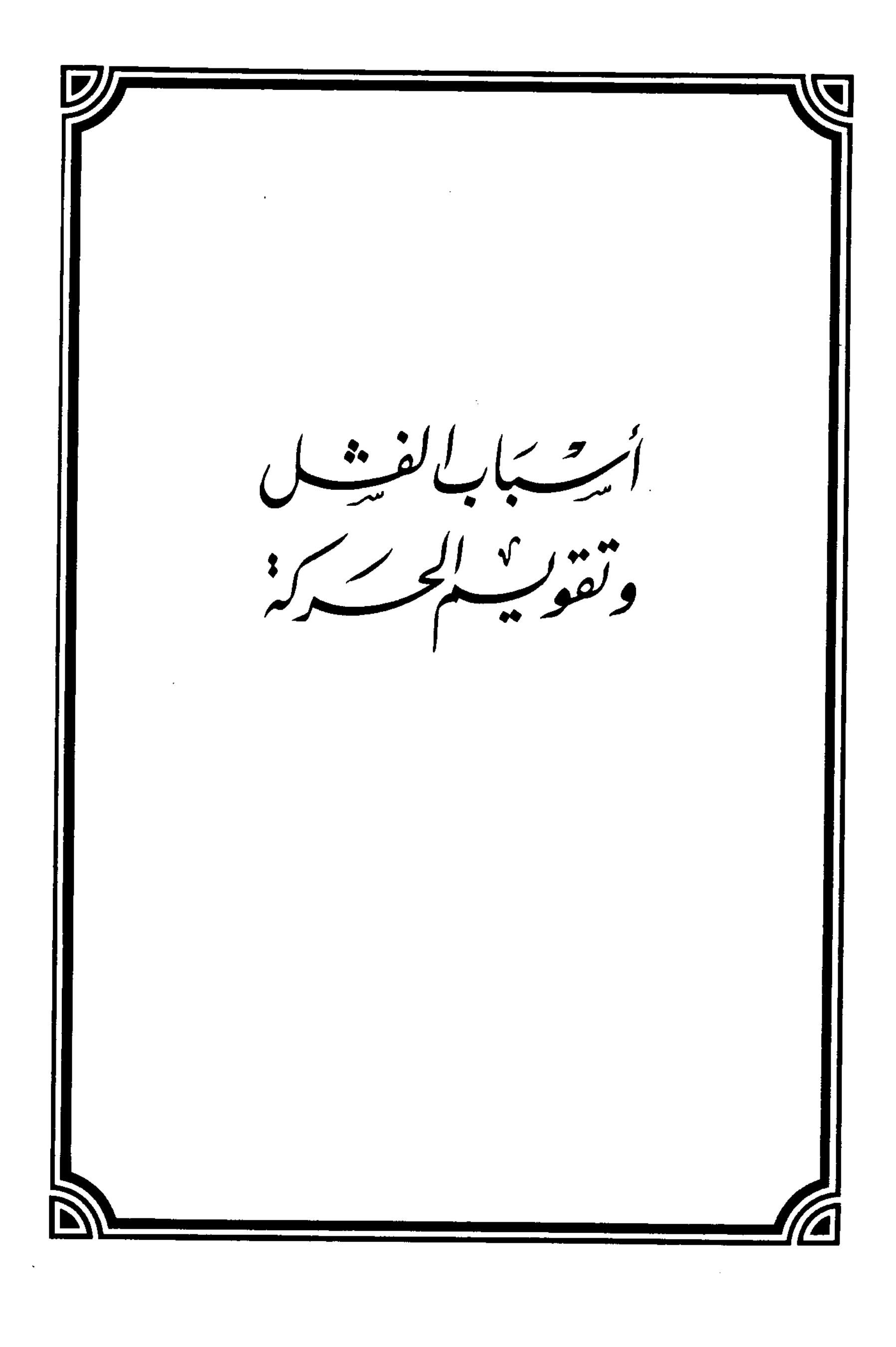
(٢) الطبري : ٧ / ٦٤٨ .

فشكر ، وإن أيوب ابتُلَي فصبر ، وإن يوسف ظُلِمَ فغفر وأنت من ذاك النسل) فتبسم المنصور لهذا الجواب وعفا عنه وأرجعه إلى المدينة[1].

* * *

(١) مقاتل الطالبيين / ٣٥٠ .





أسباب الفشل وتقويم الحركة



المبحث الأول
أسباب سياسية

انتهت حركة النفس الزكية وأخيه إبراهيم بالفشل الذريع ، وقتل الأخوان وتشردت الأسرة وقتل كثير من أفرادها في سجون المنصور ، وكانت حركة قوية جمعت حولها كثيراً من الأنصار وتعاطف المسلمون معها لما تميز به الأخوان من تدين وشهامة وشجاعة ، وأيدها كثير من العلماء بل قاتلوا معها ، ومع أن هذه الحركة جاءت في وقت كانت الدولة العباسية لا تزال في بدايتها وفي وقت تأسيسها وانشغالها بنفسها ، حيث انشغل المنصور بعمه عبد الله بن عليّ وكذلك بقائد الجيوش التي زحفت من الشرق أبي مسلم الخراساني[1]، مع هذا فقد فشلت هذه الحركة

---

(١) إن الثورة العباسية ككل الثورات الناجحة والتي كانت ترفع شعارات عامة ترضي الجميع ويتجمعون حولها وكل له مطلب وكل يدبر في نفسه أمراً وكل يظن أنه هو الذي سيكون الرابح الأول ، هذه الثورات غالباً ما يبدأ الصراع الداخلي بينها بعد النجاح ، فالداعية الأول للدعوة العباسية والذي كان مقره في الكوفة أبو سلمة الخلال والمسمى =

القوية والتي يذكر المؤرخون أن ديوان إبراهيم الذي فيه أسماء أنصاره بالبصرة هذا الديوان كان فيه مائة ألف من الذين أبدوا الاستعداد لمناصرته وقريباً منه كان ديوان أخيه محمد بالمدينة[1] فكيف تفرقت هذه الجموع ولم يبق مع محمد أخيراً إلا كعدد أهل بدر أي حوالي الثلثمائة رجل ، وكيف يهزم إبراهيم ومعه هذه الكثرة بينما كان جيش عيسى بن موسى متعباً من معارك المدينة ومن قدومه من مسافة بعيدة . هناك - ولا بد - أسباب للفشل نبدأها بالأسباب السياسية ونجملها فيما يلي :

١- دهاء المنصور

واجهت الحركة ملكاً داهية اجتمعت فيه صفات الملك من الحزم والتدبير والحرص ، يصفه المؤرخ الذهبي بقوله : (كأن

= « وزير آل محمد » هذا الداعية قتله العباسيون لأنهم أحسوا أنه يريد تحويل الملك إلى أحد أولاد الحسن أو الحسين ، وعبد الله بن عليّ العباسي حاول نقل الخلافة إليه بعد وفاة ابن أخيه « السفاح » ولكن أنّى له هذا وقد وليها أبو جعفر المنصور وهو لا يترك أحداً يفكر بالثورة عليه ، وأبو مسلم الخراساني يشعر بأن له الفضل على الدولة ومثل هذا عادة ما تكثر مطالبه وطموحاته ، ولكن المنصور لا يرضى بمثل هذه النوعيات وهو وإن استفاد منه ولكنه الآن يشكل خطراً على الدولة إذن فليذهب مع الذاهبين ويكون كالليمونة التي تعصر ثم ترمى ، وهذه عادة الدولة التي ترى مصلحتها الخاصة فوق مصلحة الجميع .

ويُشبِّه بعض المعاصرين « الثورة » التي تنتاب المجتمع والشفاء منها يعقبه ضعف ناتج عن الصراع الداخلي .

(١) الطبري : ٧ / ٥٨٢ .

عينيه لسانان ناطقان ، يخالط أبهة الملك بزي أولي النسك)[1] ، ويقصد الذهبي أنه يجمع ما بين الملك والخلافة ، ومع دهائه ومكره فهو لا يترك أحداً ممن اشتهر بالرأي السديد إلا ويستشيره فيرسل أقاربه إلى عمه عبد الله بن عليّ وهو في سجنه ويطلب منهم أن يعلموا رأيه في خروج محمد في المدينة ويقول لهم : (ما زلنا نعرف منه الرأي الحسن)[2] ، ويستشير حنظلة البهراني بينما لا نرى هذه الخاصية عند محمد وإبراهيم وحتى إن استشارا فإنهما لا يسمعان لذوي الرأي بل يتغلب عليهما أصحاب العواطف الجياشة .

تفوق عليهما المنصور في ناحية أخرى وهي الخداع والمكر ، فالأخوان لا يتقنان هذه الأساليب ، فالمنصور يرسل الرسائل المزورة على ألسنة الشيعة في خراسان حتى يعلم متى يخرج محمد ، وربما حتى يشجعه على الخروج قبل الوقت المحدّد فيكون استعداده أقل ، ويكتب المنصور رسائل مزورة صادرة عن بعض قواده أمثال حميد بن قحطبة فيها تشجيع لمحمد فيصدقها ويظن أن حميداً وأمثاله معه ، ويرسل المنصور الجواسيس ليعلم مكان اختفاء محمد وقد نجح في هذا ، كما يرسل الرسائل إلى أهل المدينة يعدهم فيها

(١) العبر : ١ / ٢٣٠ .
(٢) الطبري : ٧ / ٥٦٥ .

بالأموال الطائلة إن هم تركوا هذه الحركة ولم ينضموا لها .

٢- القيادة

عندما اقترب جيش عيسى من المدينة قام محمد يخطب في الناس ويخوفهم من هذا الجيش وأن فيه عدة وعدداً ، وأنه قد أحلهم من بيعته إذا أرادوا ذلك ، وكأن محمداً نفسه خذلهم عوضاً عن تشجيعهم ولذلك تسللوا لواذاً حتى لم يبق معه إلا العدد القليل ، وتصرفه هذا خطأ فاحش في مثل هذه الظروف . والناس في مثل هذه الأحوال لا يُخيَّرون بل يُطلب منهم الثبات إذا كان يعتقد أنه على الحق ، وإذا كانوا هم مقتنعين بهذا الحق ، وربما كان في خاصة نفسه لا يريد إكراه أحد وهذه طبعاً صفة نبيلة ولكن ليس هكذا تُقاد الحركات التي تريد أن تتحول إلى دولة الخلافة ومثل هذا الخطأ يصدر عن أخيه إبراهيم عندما أتاه خبر مقتل أخيه فقد صلى العيد والناس يرون الانكسار بادياً عليه ويقول أحدهم : (رأيت في وجه إبراهيم الموت حين خطبنا يوم الفطر فانصرفت إلى أهلي فقلت : قتل والله الرجل) .

خرج محمد قبل الموعد المحدد وذلك تحت ضغط أنصاره وإلحاحهم عليه وكذلك إلحاح أمير المدينة في طلبه وكان والدهما عبد الله بن حسن يشعر بهذه العجلة فيهما فيقول لهما عندما اتصلا به أثناء فترة الملاحقة واستأذناه في الخروج يقول :

(لا تعجلا حتى يمكنكما ذلك)[1].

وكان من الأفضل لهما ودعوة بني العباس مثال حي أمامهما أن يتريثا ويرسلا الدعاة إلى كل الأقطار ويتأكدوا من قوة الدعوة والأنصار وربما ظنا أن الناس تستجيب لهما بمجرد خروجهما بسبب حبهم لآل البيت ، وهل المحبة وحدها تكفي لإزاحة دولة وإقامة أخرى ، كما أن عدم التوافق في الخروج كان مما سهل على المنصور القضاء عليهما .

٣- طبيعة الشعوب

ترك أكثر أهل المدينة النفس الزكية في الساعات الحرجة ولم يبق معه إلا القليل ، وحصل مثل هذا لزيد بن عليّ في خروجه على هشام بن عبد الملك ، وفي معارك عبد الله بن الزبير مع الحجاج بن يوسف ، فلماذا تنفض هذه الجموع بعد أن بايعت وتحركت ، أعتقد أن من الأسباب الرئيسية هو أن الناس والعوام بشكل خاص يميلون إلى الحاكم المستقر في العاصمة ويشعرون أنه هو الأقوى ، ولذلك فهم في موازنة دائمة بين نجاح الثورة أو الحكم القائم ، واحتمال بقاء الحكومة المستقرة في العاصمة أقوى من احتمال سقوطها ، فهذا الحاكم موجود على كل حال ، أما الثائر فربما ينجح وربما يفشل ، فما أن يجد الناس أن الثورة فيها شيء من

---

(١) الطبري ٧ / ٥٤١ .

الضعف حتى يتركوها ، ولماذا يغامرون في قضية يتوقعون خسارتها ، ولو كانت هذه القضية هي الأفضل لهم في الدين والدنيا .

وبعض المؤرخين يقول : إن للشعوب حاسة سادسة تستطيع أن تميز الخاسر من الرابح ، وإذا كان محمد يعتبر دعوته دعوة دينية فإن بعض الناس لا يعتبرها كذلك ، فهذا أحد رجال إبراهيم تصيبه الدهشة عندما يفاجأ بتورعه عن سفك الدماء فيقول له : (أتريد ملكاً ولا تسفك الدماء في سبيل ذلك)[1]، ولهذا يقول المؤرخ ابن خلدون : (وأحوال الملوك والدول راسخة لا يزحزحها ويهدم بناءها إلا المطالبة القوية)[2].

واستقراء ابن خلدون صحيح وهو الغالب ، فالدول ومن خلال الأموال المكدسة عندها تستطيع امتلاك الجيوش والأسلحة والأجهزة ، كما أنها من خلال تعاملها مع دول مثلها ونظرة الناس لها بأنها مستقرة تستطيع الاستمرار أكثر ، ونحن نرى في عصرنا كيف أن الدول تمتلك أدق الأجهزة وأقوى الأسلحة عدا عن الإغراءات الكثيرة لذوي النفوس الضعيفة ، وكيف أن الناس الذين تربطهم صلة مباشرة مع هذه الدول - الموظفون مثلاً - هؤلاء ينظرون إلى أنفسهم على أنهم جزء بسيط في هذه الآلة

---

(١) الطبري : ٧ / ٥٤٧ .

(٢) المقدمة / ١٥٩ ط ٥ بيروت .

الضخمة – الدولة – وأن هذه الآلة يمكن أن تطحنهم إذا خالفوها ، فلا بد للمطالبة القوية – كما عبر عنها ابن خلدون – من الاستناد إلى قاعدة شعبية عريضة تؤمن بأهداف الحركة إيماناً قوياً .





المبحث الثاني

طبيعة العصر

نشأ محمد وأخوه إبراهيم نشأة دينية فوالدهما عبد الله بن حسن وإخوته كلهم متدينون أتقياء ، بل الجو العام في المدينة كان جواً دينياً ، والعهد قريب بالتابعين وتابعي التابعين الذين تلقوا العلم والعمل عن الصحابة رضوان الله عليهم ، والإمام مالك يحتج بعمل أهل المدينة لأنهم رأوا وعاينوا ما لم يره الآخرون .

وهذه البيئة وهذه النشأة واضحة جداً في تصرفات محمد وأخيه فنراه يحجم عن تصرفات تتعارض مع التقوى وإن كان غيره يمكن أن يجد لها مبرراً ، والذي يقود حركة أو ثورة سيصادف أموراً واقعية لا يستطيع الفكاك منها ، فإما أن يتنازل عن بعض الأشياء وإما أن لا يخرج أصلاً ، وهذه أمثلة على ذلك :

(١) حج الخليفة المنصور عام أربعين ومائة للهجرة ، وكان

محمد وأخوه قد حضرا موسم الحج هذا ، فاستأذن منهما بعض أنصارهما في اغتيال المنصور ، فرفض محمد قتله غيلة[1].

(٢) أرسل أبو جعفر رجلاً يتجسس أخبار محمد ويتعرف على مكانه ، واستطاع هذا الجاسوس الوصول إلى مخبأ محمد في جبل رضوى[2]، ويعلم محمد بواسطة أحد أصحابه أن هذا الرجل مرسل من قبل المنصور ولكنه رفض قتله عندما طلب منه ذلك وقال : (ما أنا بمقارن دما إلا مكرهاً)[3].

(٣) طلب أحد القواد من إبراهيم مهاجمة جيش المنصور ليلاً فرفض . فغضب هذا القائد وقال له : (تريد ملكاً وتكره القتل)[4].

(٤) كان الناس يتعجبون من تصرفات إبراهيم وعلموا أن هذا الرجل لا يشبه أبا جعفر ، فعندما انتصر وأصبحت البصرة تحت سيطرته أرسل إلى أحد ولاة المنصور على إقليم فارس واسمه محمد بن عطية أن يحضر وطلب منه مالاً فحلف له هذا الوالي أنه لا يملك شيئاً فتركه إبراهيم و لم يؤذه ، فخرج الوالي وهو

---

(١) الطبري ٧ / ٥٣٥ .

(٢) جبل ضخم من جبال تهامة قريباً من ينبع . انظر : معجم ما استعجم للبكري ١ / ٦٥٥ .

(٣) الطبري ٧ / ٥٢٨ .

(٤) المصدر السابق ٧ / ٦٤٤ .

يقول بالفارسية : (ليس هذا من رجال أبي جعفر)[1].

(٥) تكلم إبراهيم مرة على منبر البصرة فوعظ الناس وكان مما قال : (كل منطق ليس فيه ذكر فهو لغو ، وكل سكوت ليس فيه تفكر فهو سهو ، وكل نظر ليس فيه عبرة غفلة) يقول الذي روى هذا الكلام : (فكان الناس يعجبون من كلامه وهو يريد ما يريد - أي الملك -)[2].

فالناس لا يتصورون أن الذي يخرج على المنصور إلا أنه طالب ملك ، وأنه يستخدم في سبيل ذلك كل وسيلة صحيحة أو غير صحيحة للوصول إلى هدفه ، وهذه التصرفات فيها شبه بتصرفات جده عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه عندما أبى إلا أن يعزل معاوية وكانت المصلحة في عدم عزله ، وجاءه أخوه عقيل يريد مالاً فلم يعطه شيئاً لأنه لا يوجد في بيت المال شيء ، وحتى لو وجد فلن يعطيه إلا كفرد من أفراد المسلمين ، فغضب عقيل وأسرَّها في نفسه وذهب إلى معاوية ، والناس ينظرون إلى الأمور نظرة دنيوية ويخلطون ما بين الغايات النبيلة والوسائل غير النبيلة ، وفي مثل هذه الأجواء من الصعب على من يعمل بأساليب سليمة إسلامية أن ينجح لأن الانتهازية والمكر يلعبان دوراً كبيراً هنا ، فالهوى والحب والقناعة مع أناس ، وجيوبهم وبطونهم مع

---

(١) مقاتل الطالبيين / ٣٣٧ .

(٢) مقاتل الطالبيين / ٣٣٧ .

أناس آخرين . فكيف يستطيع مثل عليّ والحسين بن عليّ أن ينجح في مثل هذه الأجواء ، هذا مع العلم أن الحنكة والدهاء والاستفادة من الرجال الذين جربوا الأمور وقلبوها ظهراً لبطن هو من الأساليب الإسلامية إذا استعمل بحق ، وأحفاد عليّ رضي الله عنهم كان ينقصهم شيءٌ من هذا ، بالإضافة إلى ما ذكرناه من أجواء الناس الدنيوية مما جعل حركتهم تفشل في الغالب .



المبحث الثالث

أسباب اقتصادية

نظم محمد حركته في المدينة ، وخرج على الدولة من المدينة ، وأول ما يلفت النظر فيها أنها محدودة الموارد الاقتصادية والبشرية وذلك بعد نقل العاصمة منها إلى الكوفة ثم إلى دمشق وبغداد فتحول قسم كبير من القبائل إلى بلاد الشام والعراق وأصبحت الكوفة والبصرة من المراكز الرئيسية للقبائل العربية ، فكيف تستطيع حركة تقوم في المدينة وتريد مجابهة دولة مستقرة ومركزها العراق حيث المال والرجال وإذا قطعت المؤونة عن المدينة فلا تكفي نفسها إلا مدة يسيرة كما وصفها مستشار المنصور : (بلد ليس فيها زرع ولا ضرع ولا تجارة واسعة)[١].

ويطلب النفس الزكية من محمد بن نافع الزبيري مساعدته والخروج معه ، فيقول له : (خرجت في بلد ليس فيها مال ولا رجال ولا كراع ولا سلاح وما أنا بمهلك نفسي معك)[٢].

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ٣ / ٣٠٦ .

(٢) الطبري ٧ / ٥٧٣ .

إن الحرب تعتمد أحياناً على الحصار الاقتصادي ، فكيف يواجه محمد هذا ، وهل أعد للأمر عدته والحرب تحتاج إلى مال وفير لتوزيعه على الجنود واستمالة الناس وشراء الأسلحة ، ولذلك نصحه القادة العسكريون بأن يخرج بهم إلى بلد آخر فيقاتلون المنصور بمثل سلاحه .

طبَّق المنصور سياسة الحصار الاقتصادي على المدينة عندما أرسل سرية إلى وادي القرى لمنع القوافل القادمة من بلاد الشام أو مصر والمحملة باللباس والأغذية ومنعها من الوصول إلى المدينة ، ولما ثارت المدينة على يزيد بن معاوية فشلت لأنها لم تستطع الصمود كثيراً أمام جيش الشام ، وإذا كان الرسول ﷺ لم يخرج منها في غزوة أحد فتلك الظروف تختلف عن الظروف الآن .

ولا تستطيع ثورة أو حركة أن تنجح بدون حساب لأهمية المال وهذا ما نلاحظه في الدعوة العباسية حيث كانت الأموال تجمع وترسل إلى مركز العمليات - الحميمة - التي يتواجد فيها محمد بن عليّ العباسي قائد الدعوة .



المبحث الرابع

أسباب عسكرية

واجهت حركة النفس الزكية جيشاً مدرباً أثبت كفاءته في الانتصار على الدولة الأموية وعلى تمرد عبد الله بن عليّ العباسي ، بينما لم تتخذ هذه الحركة العدة الكافية والاستعداد المطلوب لمعركة مع جيش نظامي .

فقد خرج فجأة واتخذ سياسة الدفاع منتظراً الجيش العباسي حتى يأتي ليحاصره على أبواب المدينة ، وجعل عماد خطته الحربية في حفر الخندق من الجهة الشمالية مقلداً الرسول ﷺ فيما فعل في السنة الخامسة للهجرة ، ونسي أن الظروف تختلف وما يكون خطة حربية في زمن لا تصلح أن تكون في زمن آخر ، فعندما حفر الرسول ﷺ الخندق فوجئت قريش أمام هذا العمل الذي لم تعرفه سابقاً ووقفت متحيرة ماذا تفعل ؟ ولكن جيش عيسى هنا لم يفاجأ لأن حفر الخنادق والدفاع من ورائها أصبحت معروفة لدى الجيوش كما أن كيفية اقتحامها لم تعد شيئاً

مجهولاً ، فقد تقدم بعض قواد عيسى إلى الجدار الذي بناه محمد فهدموه وانتهوا إلى الخندق فنصبوا عليه أبواباً خشبية ثم عبروه ولما وصل عيسى ألقى في الخندق الحقائب وغيرها وعبرت فوقها الخيل والرجال[1]، وقد وضح له هذه الحقيقة أحد أصحابه وذكر له أن الخندق لا يجدي شيئاً بل قد تكون مضرته أكثر ، وهذا العمل يمنع المقاتلين من التحرك السريع لضرب العدو ، فكأن الخندق أصبح عقبة على أصحابه وليس عقبة أمام جيش عيسى ، وهذا من أسوأ الخطط العسكرية عندما تكون الخطة عبئاً على صاحبها حين يظنها أنها من أسباب النصر ، ومن الأمثلة على أن خطة ما قد تكون عبئاً على صاحبها ، ما حدث في معركة حنين عندما أصر قائد المشركين عوف بن مالك على حمل النساء والأطفال والأموال معه حتى يقاتل الرجال بشجاعة أكثر دفاعاً عن أعراضهم وأموالهم و لم يسمع لكلام الخبير المجرب (دريد بن الصمة) حين قال له : (لا يرد المنهزم شيء) وهكذا تحولت هذه الأموال غنيمة للمسلمين .

ويُشار على إبراهيم بحفر خندق لأنه بأرض مكشوفة – وهنا حفر الخندق خطة ناجحة – فيرفض استجابة لأصحاب العواطف الذين قالوا : كيف نحتمي بخندق ونحن الأقوى[2].

اعترف محمد في إحدى خطبه أن أهل المدينة ليسوا بأهل قوة ولا شدة ومع ذلك فهو يصر على البقاء فيها ولا يكتفي بهذا بل

---

(١) عبد الرؤوف عون : الفن الحربي في صدر الإسلام / ١٩٥ .

(٢) الطبري ٧ / ٦٤٤

يخوفهم من جيش عيسى عندما اقترب من المدينة ويقول لهم : (إن هذا الرجل قد قرب منكم وهو في عدد وعدة فمن أحب المقام فليقم ومن أحب الانصراف فلينصرف)[1] فلما سمعوا هذا الكلام تسلل أكثر الناس ولم يبق معه إلا القليل .

ولم يخطط محمد للانسحاب المنظم أو الانتقال إلى بلد آخر للاستمرار في الثورة إذا فشلت في المدينة ، بينما نجد القائد العباسي يضع في احتماله انسحاب محمد باتجاه مكة فيكلف سرية من خمسمائة رجل أن تحرس طريق مكة لمنعه من هذا الانسحاب إذا وقع .

كان تردد إبراهيم واضحاً في أي مشورة عسكرية فالبعض يشير بمباغتة أبي جعفر المنصور فيرفض ، والبعض يشير بتقسيم الجيش إلى كراديس وآخرون يرفضون هذه الفكرة مفضلين نظام الصف مع أن نظام الصف قد تناساه كثير من المسلمين بعد أن اتخذوا نظام الكراديس ، بل هذا النظام الأخير قد اتخذه مروان بن محمد وألغى رسمياً نظام الصف ، ومع هذا نجد إبراهيم يصر على نظام الصف وكأنه يظن أنه من سنن الإسلام[2]، ولم يسمع إبراهيم لرأي أهل الخبرة والحرب في رجاله وهو نفسه لم يكن عنده تلك الخبرة العسكرية الكافية .

خرج محمد في المدينة بينما بقية المدن الحجازية لم تكن مهيأة

---

(١) الطبري : ٧ / ٥٨٢ .

(٢) عبد الرؤوف عون : الفن الحربي / ٢٤١ .

للمساعدة والخروج مع ان نزعة أهل الحجاز واحدة ، فلماذا لم تتحرك كل المدن دفعة واحدة ؟ ولماذا لم يخطط لهذا ؟، هذه نقطة ضعف في حركة بدأت وانتهت في المدينة .

وبعـــد :

فقد هدأت المدينة بعد هذه الحركة تلملم جراحها ، وتقدر الأرباح والخسائر بعد هذه الجولة من الصراع ضد الحكومة في بغداد و لخسائر كبيرة جداً ، خسائر في الأرواح وخسائر في الأموال لأن المنصور صادر أموال من اشترك في هذه الحركة ، والأشد من هذه الخسائر هو هذا الفشل الذريع حيث كانت النفوس تأمل وتتطلع إلى الانتصار الذي سيعقبه الآمال العريضة في دولة يحكمها أمثال « النفس الزكية » .

ولا شك أن كثيراً من أهل المدينة فكروا طويلاً في هذا الذي حصل ، لماذا ؟، ومن السبب ؟، وهل خدعنا أم أننا لم نتخذ الوسائل المناسبة إلى آخر تلك الأسئلة التي تعرض للإنسان بعد الفشل .

وفي مثل هذه الأحوال ينقسم الناس ما بين مبرر للأخطاء التي حصلت وما بين لائم لنفسه كيف اندفع مع المندفعين بلا ترو ولا دراسة لأسباب الخروج وكيفيته ، وهل اتخذت كل الأسباب لذلك، وهل يجوز من الناحية الشرعية أن نتحرك ضد الخليفة في بغداد .

وهذا الصنف من الناس هو الذي يتمكن من تقييم الأمور ودراسة أبعادها ليستخرج النتائج ويستفيد من الدروس .

أما صنف المبررين فهذا لا يستطيع أن يقدم شيئاً ولو قامت حركة أخرى بلا استعداد ولا قوة لقام معها[1]، وتبقى الحقيقة التي يجب أن تُسجَّل ويقرأها الناس ويعيها الذين ينشدون التغيير وهي أن الله سبحانه وتعالى لا يولي على الناس أمثال أبي بكر وعمر إذا لم يكونوا بمستوى رعية أبي بكر وعمر ، والجزاء من جنس العمل ، وكما قيل : (كما تكونوا يُوَل عليكم) ، فكيف يصبح في الأذهان أن الناس في بعدهم عن الدين وعن الأخلاق الإسلامية في حياتهم الخاصة والعامة حيث الحقد والحسد وحب المال وأكله بالباطل ولا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر ، هل هؤلاء يستحقون أن يكرمهم الله سبحانه وتعالى برجل صالح يحكمهم ، إن سنة الله في التغيير تأبى ذلك ، وكل خروج على هذه القاعدة فهو الفشل والأخطاء المتراكمة والعجز واللوم .

وإذا كان الكفار يتمكنون من إقامة الدول فإن الله سبحانه وتعالى يعطيهم من الدنيا ، ولكن المسلمين إذا أرادوا الخلط في النية فالله أغنى الشركاء عن الشرك ، ولذلك تفشل حركاتهم فلا دنيا يقيمون ولا دين يحفظونه حق الحفظ .

إن كثيراً ممن شارك مع « النفس الزكية » وأخيه كانت نواياهم طيبة ولكن كما قيل : (ما هكذا يا سعد تورد الإبل) ، وقد

---

(١) سُئِل أيوب بن القرية عن أهل الحجاز (يومها) فقال : أسرع الناس إلى فتنة وأعجزهم عنها .

قال أصحاب إبراهيم له : (أردناك ملكاً فأبى الله إلا أن تكون شهيداً) .

والنوايا الطيبة لا تكفي هنا بل لا بد من الصواب وهو العمل المدروس المخطط له سلفاً الذي تؤخذ فيه كل الاستعدادت بدءاً من العلم الشرعي وانتهاءً بالاستعداد المادي ، وإذا كان بعض طلبة العلم أو بعض العلماء يظنون أنهم لمجرد تبحرهم في الفقه أو النحو أو غير ذلك من فنون المتأخرين التي تحفظ لمجرد هذا فلهم الأهلية والأحقية في قيادة الأمم أو قيادة الجيوش فهم واهمون مخطئون ، قد غفلوا عن التطور الذي حصل في الأمة الإسلامية فهو يرى أن بعض أصحابه الذين قادوا الجيوش لم يتخرجوا من الكلية الحربية ، وكذلك الذين تولوا الولايات الكبيرة لم يتخرجوا من كلية للسياسة أو إدارة الأعمال ، ويظن لذلك أن هذا الصحابي أو التابعي إنما نال هذه الرتبة لمجرد علمه وفضله ، ولم يدر هذا المسكين أن الصحابة بطبيعتهم وبيئتهم عسكريون ، فكيف بهم إذاً وقد صقلوا بتربية الرسول ﷺ وقد خاضوا معه المعارك الحربية والسياسية ، ورأوا وشاهدوا بأعينهم كل تصرفاته وأفعاله ﷺ ، وكيف ومتى حارب ومتى هادن ، وكيف تعامل مع الكفار والمنافقين ومع الدول المجاورة . ثم يأتي هؤلاء الذين عاشوا طوال حياتهم في بطون الكتب ليظنوا أنهم مثل أبي عبيدة ومعاذ بن جبل ولم يعلموا أن الرسول ﷺ كان يختار الأكفاء في كل مهمة .

لقد غفل هؤلاء عن التطور الذي حصل للعلماء حين ابتعدوا عن السياسة وعن إدارة وقيادة الجيوش وانحصرت مهمتهم في تعليم الناس العلم المطلوب وتقديم الفتوى للدول أو الشعوب و لم يعد لهم ذلك الدور الفعال في إبداء الرأي والمشورة في الأمور العامة التي تهم المسلمين جميعاً . ولذلك ابتعدوا شيئاً فشيئاً عن ممارسة الأمور العملية وحل مشاكل الدول والجماهير التي تطرأ مع كل عام جديد .

يقول ابن الأزرق : (إن العلماء من بين الناس أبعد عن السياسة ومذاهبها وذلك لأمرين :

أحدهما :أنهم يعتادون النظر الفكري وانتزاع المحسوسات وتجريدها في الذهن .

الثاني : أنهم يقيسون الأمور على أشباهها بما اعتادوا من القياس الفقهي فهم منفردون في سائر أنظارهم بالأمور الذهنية .

والسياسة تحتاج إلى مراعاة ما في الخارج ولذلك يقعون في الغلط الكثير ، والعامي السليم الطبع المتوسط الكيِّس حيث يقتصر في كل حادثة على حكمها الخاص بدون تعميم فيكون مأموناً من الغلط)[1].

ويقصد ابن الأزرق أنهم لمكثهم طوال حياتهم بين الكتب فهم لا ينتبهون إلى الأمور العملية التي تحدث حولهم .

---

(١) بدائع السلك في طبائع الملك / ٣٧٣ .

يقول ابن خلدون : (وسبب عدم حضورهم لأهل الحل والعقد لأنه ليس عندهم قوة يقتدر بها على حل أو عقد وأما شوراهم النظرية فهذا موجود في الكتب من الفتاوي)[1] .

وإذا وجد من العلماء من يتقن الأمور العلمية والعملية ويتصدى للأخطاء وللأخطار فهذا كان قليلاً .

وإذا كان الحال هكذا فهل يتصور طلبة العلم الذين عاشوا هذه الأجواء أن يتحولوا فجأة إلى فهم الأمور العملية وإتقانها ، فكيف إلى فهم الأمور العسكرية والتصدي لها . ولقد كان واضحاً من سير المعركة بين إبراهيم بن عبد الله بن حسن وخصمه العباسي أن زعماء القبائل الذين كانوا معه كانوا أعلم منه بالأمور العسكرية لتجربتهم العملية الطويلة ، ولأن أكثر الناس اليوم لا يقرأون التاريخ الإسلامي فهم يقعون بنفس الأخطاء التي وقع فيها من سلفهم .

ولكن معاناة الأمر ميدانياً ربما يمكن المسلمين من تجربة لا بأس بها لمواجهة الأمور .

وفي حركة عبد الرحمن بن الأشعث كان معه العالم المشهور عامر الشعبي وقد انتصر الحجاج على ابن الأشعث وجيء بعامر الشعبي وسأله الحجاج عن سبب خروجه فاعتذر الشعبي بقوله : (لم نكن بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء) فعفا عنه .

---

(١) المقدمة / ٢٢٤ .

فهذه الحركات لم تكن قوية بما فيه الكفاية لإزاحة هذه الدول المتمكنة القوية التي تعتمد على جيوش منظمة وأموال كثيرة ، كما تعتمد على المكر والدهاء ، هذا مع استقرار ها الذي يؤيده أكثر العوام ، ولذلك يقع الفشل وراء الفشل والذل والإهانة والألم والندم ، وهنا يتبادر السؤال : ماذا قدمت هذه الحركات من خير ؟ وقد يجيب البعض بأن من إيجابياتها عدم سكوت المسلمين على ظلم وقع بهم . وهذا مؤشر خير فيهم وأنَّ الأمة لا تزال تدفع بأبنائها تريد الإصلاح والخير وتريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكنها أخطأت الطريق . وتبقى هذه الحركات بإيجابياتها وسلبياتها جزءاً من تاريخ المسلمين يمكن الاستفادة منه .

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل



ثبت المصادر

(١) ابن الأثير	علي بن محمد (٦٣٠ هـ) - الكامل في التاريخ ط دار الكتاب العربي
(٢) البرادعي	الشريف أحمد بن محمد الحسيني - المدينة المنورة عبر التاريخ الإسلامي
(٣) ابن تيمية	أحمد بن عبد الحليم (٦٦٤ - ٧٢٨) - منهاج السنة النبوية : تحقيق رشاد سالم
(٤) ابن خلدون	عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨) - المقدمة . نشرة دار الكتاب العربي
(٥) ابن الأزرق	بدائع السلك في طبائع الملك
(٦) الدينوري	أحمد بن داود - الأخبار الطوال تحقيق عبد المنعم عامر
(٧) الذهبي	الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان - العبر في خبر من غبر - تذكرة الحفاظ - سير أعلام النبلاء تحقيق الأرناؤوط

(٨) ابن رسته
أحمد بن عمر
– الأعلاق النفيسة

(٩) الزبير بن بكار
– جمهرة نسب قريش تحقيق : محمود شاكر

(١٠) الأصفهاني (أبو الفرج)
– مقاتل الطالبيين

(١١) السخاوي
محمد بن عبد الرحمن
– التحفة اللطيفة في تاريخ رجال المدينة الشريفة مخطوط طبع من ثلاثة أجزاء.

(١٢) ابن سعد
محمد بن سعد بن منيع
– الطبقات الكبرى

(١٣) ابن طباطبا
محمد بن علي بن طباطبا
– الفخري في الآداب السلطانية

(١٤) الطبري
أبو جعفر محمد بن جرير
– تاريخ الرسل والملوك ط ٢ دار المعارف بمصر

(١٥) ابن كثير
أبو الفداء إسماعيل بن عمر
– البداية والنهاية ط ٢

(١٦) المقدسي
محمد بن أحمد
– أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم

(١٧) الماوردي
أبو الحسن علي بن محمد
– الأحكام السلطانية

(١٨) المسعودي
أبو الحسن علي بن الحسين
– مروج الذهب ومعادن الجوهر

(١٩) المرجاني أبو محمد عبد الله
- تاريخ المدينة المنورة مخطوط مجلد واحد مكتبة عارف حكمت بالمدينة

(٢٠) الواقدي محمد بن عمر
- كتاب المغازي تحقيق د . ماسون

(٢١) ياقوت الحموي - معجم البلدان

(٢٢) أحمد أمين - ضحى الإسلام

(٢٣) حسن إبراهيم حسن - تاريخ الإسلام السياسي

(٢٤) خير الدين الزركلي - الأعلام

(٢٥) عبد العزيز الدوري - مقدمة في تاريخ صدر الإسلام

(٢٦) رونلدسون - عقيدة الشيعة

(٢٧) سيدة إسماعيل الكاشف - مصادر التاريخ الإسلامي

(٢٨) علي حسن الخربوطلي - عبد الله بن الزبير

(٢٩) محمد جواد مغنيه - الشيعة في الميزان

(٣٠) المجلة التاريخية تصدرها الجمعية التاريخية العراقية في بغداد العدد الرابع

* * *

الفهرس

صفحة

* * *